باتريك موديانو

دورا برودیه

ترجمة: د.ناهد عبدالحميد

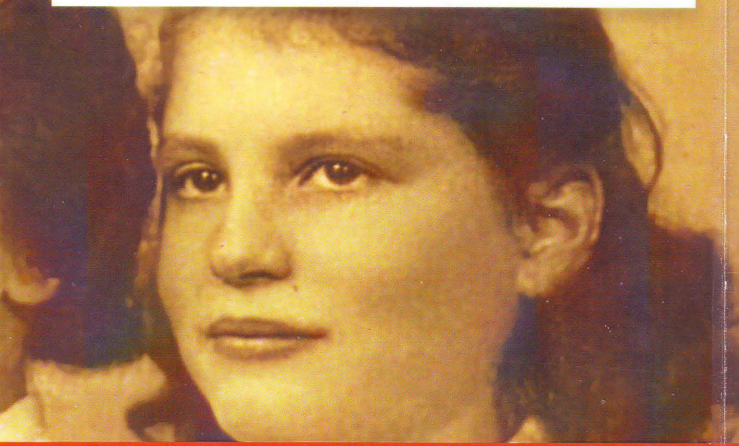

نوبل للآداب 2014

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

باتريك موديانو

دورا برووديه

ترجمة

د.ناهد عبدالحميد

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

د.ناهد عبدالحميد/ شغلت الدكتورة ناهد عبدالحميد منصب عميد كلية الألسن بين عامي 2011 و2015، ورأست قبله قسم اللغة الفرنسية بالكلية، وقد حصلت د.ناهد عبدالحميد على وسام من الجمهورية الفرنسية بسبب الخدمات الجليلة التي قدمتها للثقافة الفرنسية. لها العديد من الترجمات من الفرنسية إلى العربية والعديد من الأبحاث المكتوبة بالفرنسية.

.....

دورا بروديه

الطبعة الأولى 2017

رقم الإيـــــداع: 2017/3429

الترقيم الدولي: 978-977-821-019-4

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means, electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage and retrieval system, without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

اخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

حقوق صورة الغلاف محفوظة

DORA BRUDER, Patrick MODIANO © Editions GALLIMARD, Paris, 1997

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

دورا برودیه

قبل ثماني سنوات؛ عثرت في إحدى الصحف المسائية القديمة «باريس سوار»، التي تحمل تاريخ 31 ديسمبر 1941، وفي صفحتها الثالثة أسفل عمود «من الأمس إلى اليوم»، على الإعلان التالي:

«باريس: نبحث عن شابة اسمها دورا بروديه، خمس عشرة سنة، طولها 1.55 م، وجه بيضاوي، عينان عسليتان، معطف رياضي رمادي، بلوفر بنفسجي، تنورة وقبعة كحليتان، حذاء رياضي بُنّي. أرسِل المعلومات إلى السيد والسيدة بروديه، 41 جادة أورنانو، باريس».

أعرف منذ زمن طويل الحيَّ الذي تقع فيه جادة أورنانو. في طفولتي كنت أذهب بصحبة والدتي دائمًا إلى سوق سانت أويهسانت وان للبالات. كان ذلك دائمًا بعد ظهر يوم السبت أو ظهيرة الأحد من كل أسبوع. كنا نهبط من الحافلة عند بوابة كليانكور، وفي بعض الأحيان أمام مبنى بلدية الدائرة الثامنة عشرة.

في الشتاء،على رصيف الشارع الممتد بمحاذاة ثكنة كليانكور العسكرية، والمكتظ بالمارة، يقف مصور ضخم،

له أنف مليء بالحبوب، يرتدي نظارة مستديرة، وأمامه آلة تصوير ذات قوائم ثلاث، ويعرض على المارة التقاط «صورة تذكارية». في الصيف يقف على ممرات متنزه دوفيل الخشبية أمام حانة «حانة الشمس»، فيجذب بعض الزبائن. أما هنا، في بوابة كليانكور، فيبدو أن المارة كانوا لا يرغبون في التصوير. كان يرتدي معطفًا قديمًا، وإحدى فردتي حذائه كانت مثقوبة.

أتذكر جادة باريس وجادة أورنانو مهجورتين في عصر يوم أحد مشمس من شهر مايو 1958، وتمركز مجموعات من قوات الدرك في مفترقات الطرق، بسبب أحداث الجزائر.

كنت في هذا الحي في شتاء 1965، كانت لي صديقة تقيم في البناية رقم49 أو 20 بشارع شامبيونيه - أورنانو.

في تلك الحقبة، كانت سيول المارة التي تمر بامتداد الثكنة العسكرية أيام الآحاد، تكاد تطيح بالمصور، لكنني لم أذهب قط للتحقق من الأمر. تساءلت عن الغرض من وجود تلك الثكنة، قيل لي إنها كانت مقر إقامة قوات المستعمرات.

في يناير 1965، كان الليل يخيم على مفترق جادة أورنانو وشارع شامبيونيه، حوالي الساعة السادسة. لم أكن شخصًا ذا بال، فكنت أتلاشى في ذلك الغسق وبتلك الشوارع.

يسمَّى المقهى الأخير الواقع على طرف جادة أورنانو- في الجانب الذي كان يحمل أرقامًا زوجية- «الشراب المتدفق". على اليسار منه يوجد مقهى آخر، في زاوية جادة نايي، مزود

بصندوق أسطوانات يعمل بالعملة المعدنية، وكان هناك صيدلية في مفترق أورنانو – شامبيونيه، ومقهيان في زاوية شارع دوشم، أحدهما أقدم من الآخر.

كم طال انتظاري في تلك المقاهي.. في أوقات السحر قبل انجلاء الليل، والمغرب حتى هبوط الليل، وحتى الساعات المتأخرة من مواعيد الإغلاق.

مساء كل أحد، تركن سيارة رياضية سوداء وقديمة - جاجوار على ما أظن– في شارع شامبيونيه، في مستوى مدرسة رياض الأطفال، لوحتها الخلفية مكتوب عليها «معاق حرب». استرعى انتباهي وجود تلك السيارة في الحي، وتساءلت عن ملامح وجه مالكها.

الشارع كان يخلو من المارة في تمام الساعة التاسعة مساءً. وما زلت أرى ضوء مدخل مترو خط سيمبلون. وفي الجهة المقابلة يقع تقريبًا مدخل سينما أورنانو في المبنى رقم 43. لم يجذب انتباهي قط المبنى 41، الكائن قبل السينما، على الرغم من مروري أمامه لعدة شهور، بل سنوات، من 1965 حتى 1968. تذكرت عبارة «أرسِل المعلومات إلى السيد والسيدة برووديه، 41 جادة أورنانو، باريس».

مع استعادة ذكريات السنوات الماضية، اختلط في ذهني الماضي بالحاضر وفصول الشتاء ببعضها، شتاء 1942 بشتاء 1965.

في عام 1965 لم أكن أعرف شيئًا عن دورا برودیه، لكن اليوم - وبعد مرور ثلاثين عامًا- يبدو أن طول انتظاري في المقاهي الواقعة في مفترق أورنانو، والطريق نفسه الذي كنت أسلكه سيرًا من شارع مون سينيس لأصل إلى فندقي «روما» و«ألسينا» في شارع هضبة مونمارتر، أو فندق «تيراس» بشارع كليانكور، والانطباعات العابرة التي أتذكرها عن إحدى ليالي الربيع، حيث كنا نسمع صدى الأصوات تحت أشجار ميدان كليانكور، وتوجهنا في الشتاء إلى شارع سيمبلون وجادة أورنانو، يبدو أن كل ذلك لم يكن محض صدفة. ربما، ودون دراية مني، كنت أسير على آثار خُطَى دورا برودیه ووالديها، لقد كانوا هنا بالفعل، في مكان ما.

أحاول جاهدًا استعادة بعض الذكريات التي تعود إلى الزمن البعيد، عندما كانت تصطحبني والدتي في سن الثانية عشرة إلى سوق كليانكور للبالات؛ فأتذكر اليهودي البولندي، الواقف على الطرف الأيمن لأحد ممرات أسواق ماليك وفيرنازون، المكتظة بالبسطات المتراصة.. يبيع الحقائب الجلدية الفاخرة المصنوعة من جلد التمساح، ومن الكرتون المكبوس، وحقائب السفر والأمتعة ذات الماركات العالمية، المكدسة فوق بعضها تحت هيكل منصة غير مغطاة، وكان دومًا يضع بين شفتيه سيجارة، في عصر أحد الأيام أهداني واحدة منها.

أحيانًا كنت أذهب إلى السينما في جادة أورنانو، وإلى فندق

كليانكور الفخم الفاخر، الكائن في نهاية الشارع جوار مقهى «الشراب المتدفق» والبناية43 في أورنانو.

عرفت بعد ذلك أن هذه البناية كانت سينما قديمة، أُنشئت في الثلاثينيات على شكل باخرة. عدت إلى تلك النواحي في شهر مايو 1996 فوجدت مستودعًا مكان السينما. عبرت شارع هيرميل ووصلت إلى المبنى 41 جادة أورنانو، العنوان المدون في الإعلان الخاص بالبحث عن دورا برودیه.

يتكوَّن المبنى، الذي شُيد في نهاية القرن التاسع عشر، من خمسة أدوار ملاصقة للعقار 39، وكأنهما يشكلان بلوكًا واحدًا تطوِّقه الجادة من الأمام، ويمر خلفه مخرج شارعي هيرمل وسيمبلون. يتشابه المبنيان؛ فهناك لافتة على العقار 39 مدون عليها اسم ريشيليو، المهندس المعماري الذي شيده، وتاريخ إنشائه عام 1881، وكذلك الحال بالنسبة للمبنى 41.

قبل نشوب الحرب، وحتى بداية الخمسينيات، كان العقاران 39 و41 بجادة أورنان ومنشأتان فندقيتان؛ إحداهما – رقم–39 تسمى الأسد الذهبي، وبها مقهى ومطعم يديره شخص اسمه جازال. لم أعثر على اسم الفندق القائم في رقم 41. في أوائل الخمسينيات، كان هناك في العنوان نفسه مؤسسة فندقية، وستوديوهات أورنانو 12 و54 شارع مونمارتر، وكان هناك مقهى – كما هو الحال قبل الحرب– يمتلكه المدعو مارشال. لقد اختفى ذلك المقهى. هل كان يشغل الجانب الأيمن أم الأيسر

من بوابة المركبات العتيقة المغطاة؟

تؤدي تلك البوابة إلى ممر طويل ينتهي بسلَّم في الناحية اليمنى منه.

إن استعادة ذكريات الماضي تتطلب وقتًا طويلًا لتصبح أكثر وضوحًا. لا بد من وجود بعض المعلومات في السجلات، لكنني لا أعرف كيف أحصل عليها، ومن المسئول عن حفظها، وهل سيوافق على إِطْلاعي عليها، أم أنها أصبحت في طي النسيان. الأمر يتطلب التحلي قليلًا بالصبر.

هكذا، عرفت أخيرًا أن دورا ووالديها أقاموا في فندق بجادة أورنانو عامي 1937 و1938. استأجروا غرفة بمطبخ في الطابق الخامس المزود بشرفة حديدية تمتد بعرض المبنيين المتجاورين. هناك العشرات من النوافذ في ذلك الطابق، اثنتان أو ثلاث منها تطل على الجادة، وبقيتها على الجزء الأخير من شارع هيرميل، وتطل من الخلف على شارع سيمبلون.

عندما عدت إلى هذا الحي في أحد أيام شهر مايو 1996، كانت الضلف الصدئة للنافذتين الأوليين في الطابق الخامس، المطلتين على شارع سيمبلون مغلقتين، والشرفة الأمامية تمتلئ بالمخلفات المبعثرة، الموجودة على ما يبدو منذ زمن طويل.

لا بد أن تكون دورا مسجَّلة بإحدى مدارس الحي قبل نشوب الحرب بعام أو عامين. كتبت خطابات لمديري المدارس

جميعهم، لأستعلم إن كان اسمها مقيدًا في سجلات إحداها، وأرسلتها على العناوين الآتية:

8 شارع فيرناند – فلوكون.

20 شارع هيرميل.

7 شارع شامبيونيه.

61 شارع كليانكور.

وصلني ردهم اللطيف بالنفي، لم يتم العثور على اسمها بين قوائم التلاميذ المقيدين قبل الحرب. وأخيرًا اقترح عليَّ مدير مدرسة البنات القديمة 69 شارع شامبيونيه، التحقق شخصيًّا من بيانات سجلات المدرسة؛ فقررت الذهاب ذات يوم، لكنني كنت مترددًا. تمنيت أن أعثر على اسمها هناك، لأنها أقرب المدارس إلى مسكنها.

استغرقت أربعة أعوام للتأكد من تاريخ ميلادها الموافق 25 فبراير 1926، وعامين آخرين للتعرف على مكان ميلادها في الدائرة الثانية عشرة بباريس. لكنني شخص صبور، أستطيع الانتظار لساعات تحت المطر.

في عصر أحد أيام الجمعة من شهر فبراير 1996، توجهت إلى قسم الأحوال المدنية بمبنى بلدية الدائرة الثانية عشرة في قسم الأحوال المدنية. قدم لي الموظف المسئول عن الخدمة، وهو شاب في مقتبل العمر، بطاقة لملء البيانات الآتية:

* مقدم الطلب للشباك:

- اسم الأب:
- الاسم:
- العنوان:

* بيانات أصل شهادة ميلاد الشخص المعني:

- اسم الأب: بروديه
- اسم المولودة: دورا
- تاريخ الميلاد: 25 فبراير 1926.

* وضع علامة على الخانة المتعلقة بمقدم الطلب:

- صلة القرابة:

- الأب أو الأم:
- الجد أو الجدة:
- الابن أو الابنة:
- الزوج أو الزوجة:
- الممثل القانوني:

* توكيل وإثبات شخصية للشخص المعني.

* لن يتم منح أصل الشهادة لغير المذكورين أعلاه.

وقَّعت على البطاقة وسلَّمتها للموظف، وبعد فحصها قال لي

إنه لا يستطيع إعطائي النسخة الأصلية من شهادة الميلاد لعدم وجود صلة قرابة مع الشخص المعني.

في لحظة ما ظننت أنه كان أحد كاتمي الأسرار، الذين يلتزمون الصمت للتستر على معلومة مخزية، وحجبها عن كل مَن يريد نبش ولو جزءًا بسيطًا منها. لكنه كان حسن الخلق، ونصحني بتقديم طلب استثنائي لدار القضاء: 2 شارع دار القضاء، القسم الثالث للأحوال المدنية، الدور الخامس، المصعد الخامس، مكتب 501، من الاثنين إلى الجمعة، من الساعة الثانية ظهرًا حتى الرابعة عصرًا.

توجهت للعنوان، وعندما كنت أتهيأ لعبور الحواجز والساحة الرئيسة، دلَّني أحد السُّعاة على مدخل آخر أكثر قربًا يؤدي إلى كنيسة سان شابتال. وجدت طابورًا طويلًا من السياح المنتظرين بين الحواجز، فأردت تجاوزهم والمرور مباشرة تحت الرواق، غير أن ساعيًا آخر نهرني بلهجة قاسية وأشار إليَّ بالوقوف في الطابور مع الآخرين.

تنصُّ اللوائح في مدخل البهو على إخراج القطع المعدنية من الجيوب. لم يكن معي سوى سلسلة مفاتيح، فوضعتها على الحزام المتحرك وتسلَّمتها من الجانب الآخر الزجاجي، ولم أفهم لحظتها جدوى هذه المناورة؛ وبسبب ترددي وبَّخني أحد السُّعاة.. هل هو فرد أمن؟ شرطي؟ هل يجب تسليمه الإبزيم المعدني والحزام والمحفظة كما لو كنا في مدخل السجن؟

اجتزتُ فناءً وعبرت أحد الممرات حتى بلغت ردهة فسيحة، يتجول فيها بعض الرجال والنساء، يمسكون حقائب سوداء، ويرتدي بعضهم رداء المحامين. لم أتجرأ على سؤالهم عن مكان المصعد رقم 5.

دلني حارس جالس خلف منضدة، على بداية الردهة. مكثت في قاعة خاوية يتخلل نوافذها المائلة ضوء النهار الخافت. هرولت في القاعة، لكنني لم أعثر على المصعد. أصابني الذعر والدوار الذي نشعر به عندما تصيبنا الهواجس السيئة لحظة عجزنا عن بلوغ محطة القطار، والوقت يمر ونخشى ألَّا نصل في الميعاد.

أقدمتُ على مغامرة مماثلة، منذ عشرين عامًا، عندما علمت أن أبي مريضٌ ودخل مستشفى بيتييه – سالبتريير. المرة الأخيرة التي رأيته فيها، كنت في سن المراهقة، فقررت زيارته على الفور.

أتذكر أنني كنت أهيم على وجهي لعدة ساعات في ذلك المستشفى الكبير، لأبحث عنه. دخلت مبانيه العتيقة، وذهبت إلى العنابر المليئة بالأسِرَّة، وسألت الممرضات، ولم أتلقَّ إجابة شافية، كدت أيأس من وجود أبي. كنت أغدو ذهابًا وإيابًا أمام هذه الكنيسة المجيدة وهذه المنشآت التي عفا عليها الدهر، والباقية على حالها منذ القرن الثامن عشر، التي تذكّرني برواية مانون ليسكو، والعصر الذي استخدم فيه هذا المكان كسجن

للفتيات تحت الاسم الكئيب: المستشفى العام، قبل نقلهن إلى لويزيانا. هرولت في الساحات الممهدة حتى هبوط الليل. أيقنت باستحالة العثور على أبي، ولم أرَهُ قط بعد ذلك.

اكتشفت أخيرًا المصعد رقم 5. صعدت الطوابق، ومررت بطابور من المكاتب حتى وصلت إلى الحجرة رقم 501. سألتني سيدة قصيرة الشعر- يبدو عليها عدم الاكتراث- عن مرادي.

أجابتني بنبرة جافة، أنه لكي أحصل على مستخرج من شهادة الميلاد، يجب مخاطبة وكيل النائب العام، قاضي المحكمة العليا في باريس، بمقر الشرطة القضائية القسم الثالث ب.

بعد مرور ثلاثة أسابيع، تسلمت الرد:

«دورا من مواليد الخامس والعشرين من فبراير، الساعة التاسعة مساءً، 15 شارع سانتير. الجنس: أنثى. الأب: إرنست برووديه، مواليد فيينا (النمسا)، 21 مايو 1899. المهنة: عامل. الأم: سيسيل بورديج، مواليد بودابست (المجر)، 17 إبريل 1907. المهنة: لا تعمل. محل إقامة العائلة: 2 شارع ليجارد، حي سيفرون (سان إيه واز). تاريخ تحرير المستند: 27 فبراير، الساعة الثالثة عصرًا، بناءً على الطلب المقدم من جاسبار ماير، 73 عامًا. المهنة: موظف. محل الإقامة: 76 شارع بيكبوس، حاضر عملية الولادة، والموقِّع أدناه – توقيع أول- على المستند

المذكور أعلاه. توقيع ثان: أوجست جيوم روزي، نائب عمدة الدائرة الثانية عشرة، باريس».

15 شارع سانتير هو عنوان مستشفى روتشيلد. تزامنت ولادة دورا بقسم التوليد مع أطفال آخرين من عائلات يهودية فقيرة هاجرت مؤخرًا إلى فرنسا. يبدو أن إرنست برورديه لم يكن في مقدوره التغيب عن عمله يوم 25 فبراير 1926 لقيد ابنته في بلدية الدائرة الثانية عشرة. ربما أعثر في هذا المستند على بعض البيانات المتعلقة بجاسبار ماير، الموقِّع على شهادة الميلاد. لقد كان يقيم ويعمل في مأوى روتشيلد للعجزة والمعوزين، 76 شارع بيكبوس.

إنَّ تعقُّبَ آثار دورا برورديه ووالديها، في الضاحية الشمالية الشرقية، على ضفاف قناة أورك، في شتاء 1926، أمرٌ صعبٌ للغاية. سوف أذهب يومًا ما إلى سيفرون، لكنني أخشى تغير معالم المنازل والشوارع، كما هو حال الضواحي جميعها. أتذكر أسماء بعض المباني، والسكان الذين كانوا يعيشون آنذاك في شارع ليجارد: تريانون دي فرينفيل، المبنى رقم24، هل هو مقهى؟ سينما؟ مغارات إقليم إيل دو فرانس، رقم 31، الطبيب جوران، كان يقيم في رقم 9، الصيدلي بلاتل، رقم 30.

كان شارع ليجارد، مقر إقامة دورا ووالديها، جزءًا من الضواحي الممتدة بمحاذاة بلدات سيفرون وليفري جارجان وأولني سو- بوا، التي أطلق عليها فرينفيل. نشأ الحي في

المنطقة المحيطة بمصنع مكابح ويستينجهاوس المشيد في بداية القرن. إنه حي العمال، الذي فشل - في الثلاثينيات- في إنشاء كيان مستقل بذاته، وظل تابعًا للبلدات الثلاث المجاورة، بالرغم من تخصيص محطة قطار لبلدة فرينفيل.

إرنست برورديه والد دورا، كان بالتأكيد عاملًا بمصنع مكابح ويستنجهاوس في شتاء 1926.

ولد إرنست برورديه في فيينا بالنمسا يوم 21 مايو 1899، وقضى فترة طفولته في الحي اليهودي بمدينة يوبولشتات. ينتمي والداه دون شك إلى منطقة غاليسيا أو محمية بوهيميا أومورافيا؛ كأغلبية يهود فيينا النازحين من شرق الإمبراطورية.

في عام 1965، كنت في فيينا وأنا أتم العشرين عامًا، العام نفسه الذي ترددت فيه على حي كليانكور. عشت في هاوبت بانهوف، خلف كنيسة القديس شارل. قضيت بعض الليالي في أحد الفنادق المريبة، بالقرب من محطة قطار الغرب. أتذكر بعض أمسيات الصيف في سيفرنج وجرينزنج، والحدائق التي يعزف فيها بعض الموسيقيين. كما أتذكر كوخًا صغيرًا وسط حديقة رئيسة، من ناحية هايليجنشتات، والمحلات التي تغلق كلها أيام السبت والأحد من شهر يوليو، حتى مقهى هاويلكا، والمدينة الخالية تمامًا من المارة، والترام الذي يمر تحت أشعة الشمس بأحياء الشمال الغربي حتى متنزه شلوس.

سوف أعود ذات يوم إلى فيينا، التي لم أزرها منذ أكثر من

ثلاثين عامًا. ربما أعثر على شهادة ميلاد إرنست برورديه في سجل الأحوال المدنية بفيينا. قد أكتشف مسقط رأس والديه، ومكان إقامتهما في أحد مناطق الدائرة الثانية عشرة التي يحيطها محطة الشمال، والحديقة العامة براتر، ونهر الدانوب.

لقد ارتاد في فترتي الطفولة والمراهقة، شارع براتر ومقاهيه ومسرحه، حيث كان يمثل دور رجل من بودابست، وتردد على جسر السويد، وساحة البورصة التجارية من ناحية تابورشتات؛ وسوق الكرملية.

في فيينا عام 1919، كانت حياته في سن العشرين أصعب من حياتي. عقب الهزائم الأولى التي لحقت بجيوش النمسا، فرَّ عشرات الآلاف من اللاجئين من غاليسيا، وبوكوفينا (أوكرانيا)، في أفواج متتابعة ليتكدسوا في الأكواخ الفقيرة المحيطة بمحطة الشمال. وانجرفت المدينة مع التيار، وانفصلت عن الإمبراطورية التي لم يعد لها وجود. كان إرنست - كغيره من جموع العاطلين- يهيم على وجهه في الشوارع التي أغلقت محلاتها.

ربما كان ينحدر من أصل أقل بؤسًا من لاجئي الشرق؟ هل كان أحد أبناء تجار توبورشتات؟ كيف أعرف ذلك؟!

أشارت إحدى البطاقات، من بين آلاف البطاقات الأخرى التي أُعِدَّت بعد الحرب بعشرين عامًا، لتنظيم عمليات السلب الاستعمارية التي امتدت آنذاك حتى وزارة المحاربين القدماء، إلى أن إرنست كان «مجندًا من الفئة الثانية في الفيلق الأجنبي

الفرنسي». لقد جُنِّد إذن في الفيلق الأجنبي، لكنني لم أتمكن من تحديد التاريخ، أكان 1919، أم 1920؟

فترة التجنيد آنذاك كانت تمتد إلى خمس سنوات، ولم تتطلب السفر لفرنسا، بل كان يُكتفَى بالتوجه إلى القنصلية الفرنسية. هل أنجز إرنست ذلك الأمر في النمسا، أم كان مقيمًا آنذاك في فرنسا؟ على أي حال، ربما أُرسلَ في البداية، مثله مثل الكثيرين غيره من الألمان والنمساويين، إلى ثكنات بيلفورت ونانسي، حيث تعرض لمعاملة تخلو من المجاملة، وانتهى به المطاف في مارسيليا وحصن سانت جون، التي لم يكن الاستقبال فيها حارًّا على الإطلاق، مرورًا بالرحلة إلى المغرب، حيث احتاج ليوتي- الحاكم العام الفرنسي في المغرب- إلى ثلاثين ألف جندي.

سوف أستعيد رحلة إرنست برورديه، والمكافأة التي حصل عليها في سيدي بلعباس. كان معظم المجندين – ألمان، ونمساويون، وروس، ورومانيون، ومجريون–يعيشون في حالة من البؤس، لدرجة اندهاشهم من منحهم تلك المكافأة. لم يتخيلوا ذلك قط، فكانوا يسارعون لدسِّ النقود في جيوبهم، خوفًا من استردادها منهم. كانوا يُدرَّبون على الركض فوق الكثبان والسير الطويل تحت أشعة شمس الجزائر الحارقة. كان التدريب شاقًّا على المجندين القادمين من وسط أوروبا، مثل إرنست برورديه؛ لأنهم عانوا في سن المراهقة من سوء التغذية، بسبب مُقنَّنات «الحصة التموينية» خلال سنوات الحرب الأربع.

في ثكنات مكناس وفاس ومراكش، خاض أولئك المجندون عمليات إحلال الأمن على الأراضي الثائرة في المغرب.

وفي إبريل عام 1920، دارت المعارك في بيكريت وراس طرشا. يونيو 1921، اندلعت على جبل حايان، معركة فيلق المقدم لامبير. مارس 1922 معركة وادي الشوف، بقيادة روث. مايو 1922 معركة كتيبة فيلق نيكولاس في جبل تيزي. إبريل 1923 معركة دار أربالا ومعارك بقعة تازا. في مايو 1923 دارت اشتباكات عنيفة للغاية ببلدة تلران باب بريدة، واستولت عليها فيالق المقدم نايجلان تحت القصف المكثف. ليلة 26 احتلت بصورة مباغتة كتيبة فيلق نايجلان مرتفعات إنشديرت. يونيو 1923 اندلعت معركة تادوت واستولت كتيبة فيلق ناجيلين على الهضبة ورفع جنود الفيلق العلم ثلاثي الألوان مع دويّ الأبواق، على إحدى القلاع القديمة الضخمة. في معركة ولد عطية، اضطرت كتيبة فيلق باريير إلى التزود مرتين بالذخيرة. واستولت كتيبة فيلق بوشنسشوتز على حصون رأس الجبل الجنوبي في بو خاموش. ودارت معركة وادي المرس في ذات التاريخ. يوليو 1923 اندلعت معركة هضبة مرموشة التي ضمت كتيبة فيلق كاتين وكتيبة فيلق بوشنسشوتز وكتيبة فيلق سوسينيو جينوده. أغسطس 1923 دارت معركة ولد تامغيت.

في الليل، وسط مشهد الرمال والحصى، هل كان يحلم بفيينا، مسقط رأسه، وبمدينة هوبتالي ذات أشجار الكستناء؟

تشير كذلك بطاقة إرنست برورديه الصغيرة المدون عليها «مجند من الفئة الثانية في الفيلق الأجنبي»، إلى أنه «معاق حرب 100%». ما المعركة التي أصيب خلالها؟

في سن الخامسة والعشرين أصبح بلا مأوى ولا عمل في باريس؛ إذ اضطر الفيلق لتسريحه بعد إصابته. أعتقد أنه لم يخبر أحدًا بهذا الأمر، والأمر ذاته لم يكن ليشغل بال أحد. لم يُمنح الجنسية الفرنسية. والمرة الوحيدة التي قرأت فيها عن إصابته، كانت على إحدى البطاقات المستخدمة في حملات شرطة الاحتلال.

عام 1924 تزوج إرنست برورديه فتاة في السادسة عشرة، سيسيل بورديج، ببلدية الدائرة الثامنة عشرة، ميدان جيل جوفران:

«في الثاني عشر من إبريل عام تسعمائة وأربعة وعشرين بعد الألف، في تمام الساعة الحادية عشرة وثمانٍ وعشرين دقيقة، حضر أمامنا في البلدية: إرنست برورديه، عامل، مواليد فيينا (النمسا)، الحادي والعشرين من مايو سنة ثمانمائة وتسعين بعد الألف، أربعة وعشرون عامًا، المقيم في باريس، 17 شارع باشليه، ابن جاكوب برورديه وأديل فاشيش، المتوفيين، طرف أول؛ وسيسيل بورديج، خياطة، مواليد بودابست (المجر)، السادس عشر من إبريل سنة تسعمائة وسبعة بعد الألف، ستة عشر عامًا، المقيمة في باريس، 17 شارع باشليه، بصحبة

والديها، الأب إريشيل بورديج خياط، وقرينته دينشي كوتينيا، طرف ثان.

بحضور الوكيل أوسكار فالدمان، المقيم 56 شارع لابات، وسيمون سيروتا، خياط مقيم 20 شارع كوستين؛ الشاهدان البالغان الموقّعان مع الزوجين بعد الاطلاع على الوثيقة، ونحن إتيان أردلي، مساعد عمدة الدائرة الثامنة عشرة، باريس. أقرَّ والدا الزوجة بعدم إلمامها بالكتابة».

وصلت سيسيل بورديج من بودابست إلى باريس، العام السابق، برفقة والديها وشقيقاتها الأربع وشقيقها. عائلة يهودية من أصل روسي، استقرت في بودابست في بداية القرن، دون أدنى شك.

لم تكن الحياة في بودابست أقل قسوة من فيينا بعد الحرب العالمية الأولى؛ فاضطرت العائلة إلى الفرار نحو الغرب. لم يحالفها الحظ في باريس، في المأوى اليهودي بشارع لامارك، حيث أصيبت ثلاث شقيقات بحمى التيفوئيد، ووافتهنَّ المنية في عمر الرابعة عشرة، والثانية عشرة، والعاشرة.

بعد زواجهما، أقام إرنست بورديه وزوجته سيسيل في شارع باشليه الضيق المطل على منحدر مونمارتر الجنوبي. بعد تسريحه من الفيلق، أعتقد أن إرنست - عند عودته من الفيلق- كان يقيم في العقار رقم 17، الذي كان فندقًا آنذاك، وأعتقد أنه تعرَّفَ هناك على سيسيل. عام 1964 كان «مقهى الفندق» لا

يزال موجودًا في العنوان نفسه. بعد ذلك التاريخ شُيد مبنى في مكان العقارين 17 و15 وأصبح يحمل رقمًا واحدًا: 15. لقد اعتقدوا أنه من الأسهل الاحتفاظ برقم واحد.

في السنوات الأولى من زواجهما، وبعد ولادة دورا، استمر الزوجان في الإقامة بغرف الفنادق.

إنهم من الأشخاص الذين لا يخلفون أثرًا يستدل به عليهم. إنهم شبه مجهولين. لم يتوقفوا عن التردد على شوارع باريس، أو بعض الأماكن الطبيعية في الضواحي التي اكتشفت بالصدفة أنهم كانوا يعيشون فيها. جُلُّ ما نعرفه عنهم يقتصر على مجرد عنوان. إن هذه الدقة الطوبوغرافية تتعارض مع حياتهم المجهولة، ومع هذا الفراغ، وهذا المجهول، والصمت.

لقد عثرت على ابنة أخي سيسيل زوجة إرنست برورديه. اتصلت بها هاتفيًّا. لا تتذكر عنهما سوى ذكريات الطفولة، المشوشة والدقيقة في آن واحد. تتذكر لطف ورقَّة زوج عمتها. أعطتني بعض التفاصيل التي دونتها عن العائلة. لقد نما إلى علمها أن إرنست وسيسيل برورديه وابنتهما دورا أقاموا في أحد الفنادق قبل استقرارهم في فندق جادة أورنانو. يطل الفندق على شارع بواسونييه. كنت أنظر إلى الخريطة وأخبرها بأسماء الشوارع أولًا بأول. نعم، إنه شارع بولونسو. لكنها لم تسمع قط عن شارع باشليه، أو سيفرون، أو فرينفيل، أو مصنع ويستينجهاوس.

يُقال إن الأماكن تحتفظ بأثر بسيط عن الأشخاص المقيمين بها، أثر دفين أو واضح. بالنسبة لإرنست وسيسيل برورديه ودورا، سوف أقول إنه دفين. لقد كان يتولّد لديَّ انطباع بالاختفاء والضياع في كل مرة كنت أتردد فيها على أحد الأماكن التي أقاموا بها.

في تلك الفترة، تواجد فندقان بشارع بولونسو: الأول يحمل رقم 49 ويديره المدعو روكيت، ومدون في الدليل باسم «فندق فان». الثاني رقم 32 يملكه شارل كامبازي. لقد اختفت حاليًّا تلك الأسماء والفنادق.

حوالي عام 1968 ترددت كثيرًا على الشوارع أسفل أعمدة المترو المعلق، انطلاقًا من ميدان بلانش. في شهر ديسمبر كانت الأكشاك المتنقلة تفترش الأرض، وتتخافت الأضواء كلما اقتربنا من جادة الكنيسة. ما زلت أجهل مصير دورا ووالديها. أتذكر الشعور الغريب الذي انتابني عندما كنت أسير بامتداد سور مستشفى لا ريبوازيير وأعبر فوق خطوط السكك الحديدية. كنت كالذي يخوض في المنطقة الأكثر ظلامًا في باريس، إلا أن الأمر كان مجرد تعارض بين الأضواء المتلألئة في شارع كليشي، والسور الأسود اللامتناهي، والظل الخفيف تحت أقواس المترو.

إنني أتجنب اليوم، على ما يبدو، ذكريات حي الكنيسة.. بسبب خطوط السكك الحديدية، وقربه من محطة قطار الشمال، وضوضاء قضبان المترو الذي كان يمر بسرعة كبيرة فوق رأسي.. لم يجرؤ أحد على الوقوف طويلًا في هذا المكان. إنه

ملتقى طرق، ونقطة انطلاق لكل من يريد للجهات الأربع الأصلية.

وعلى الرغم من هذا، فقد دونت عناوين مدارس الحي، التي قد أعثر فيها على سجلات دورا بروديه، إن كانت تلك المدارس لا تزال قائمة:

مدرسة رياض الأطفال: 3 شارع سانت لوك.

مدارس البنات الابتدائية بالبلدة: 11 شارع كافي، 43 شارع دي بواسونييه، وطريق أورنان المسدود.

لا أعلم شيئًا عن العائلة خلال الأعوام التي انقضت منذ إقامتها في بورت كليونكور وحتى الحرب. في وقت سابق كانت سيسيل برورديه تعمل عاملة «لحياكة الفراء» أو عاملة أجيرة «لحياكة الملابس الجاهزة». هل كان ذلك مدونًا في بطاقتها؟ لقد كانت تعمل، وفقًا لابنة أخيها، في إحدى الورش باتجاه شارع دي رويسو، لكنها غير متأكدة من ذلك. أما إرنست برورديه فقد استمر يعمل كعامل ليس في مصنع وستنجهاوس في فرنفيل، إنما في مكان ما بإحدى الضواحي الأخرى، أو ربما يكون قد عثر على مكان شاغر في ورشة ملابس جاهزة بباريس. لقد قرأت في بطاقته الصادرة أثناء فترة الاحتلال أنه: معاق حرب 100%، وجندي من الدرجة الثانية في فيلق فرنسي، و«لا يعمل» وفقًا لما كان مدونًا في خانة المهنة.

هناك بعض الصور الفوتوغرافية التي تعود لتلك الحقبة. كان أقدمها صورة ليلة زفافهما، وهما جالسان يتكآن على منضدة صغيرة. ترتدي سيسيل طرحة بيضاء طويلة تبدو وكأنها معقودة على الجانب الأيسر من وجهها، وتتدلى حتى الأرض. يرتدى إرنست بدلة وربطة عنق بيضاء فراشية الشكل. في الصورة الأخرى تظهر ابنتهما دورا التي لم تتجاوز العامين

واقفة بين الزوجين الجالسين. في صورة أخرى التُقطت بالتأكيد بمناسبة توزيع المكافآت، تظهر دورا التي تبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة تقريبًا، مرتدية ثوبًا وجوربًا قصيرًا، وتحمل كتابًا في يدها اليمنى. كانت تزم شعرها بتاج صغير يبدو وكأنه ورود بيضاء، ووضعت يدها اليسرى على حافة مكعب أبيض كبير، تزينه أعمدة سوداء بأشكال هندسية، ووُضع بالتأكيد في هذا المكان ليستخدم كديكور. هناك صورة أخرى تبدو وكأنها التقطت في المكان عينه، والحقبة نفسها، وربما في اليوم ذاته؛ يتضح ذلك من بلاط الأرضية، والمكعب الأبيض الكبير ذي الأشكال الهندسية السوداء الذي تجلس عليه سيسيل بروديه، وتقف دورا على يسارها مرتدية ثوبًا بياقة، وتثني ذراعها الأيسر أمامها كي تتمكن من وضع يدها على كتف أمها. تبلغ دورا اثني عشر عامًا تقريبًا، وشعرها أقصر من الصورة السابقة. تقف الاثنتان أمام ما يشبه حائطًا قديمًا، هو بالتأكيد المنظر الخلفي للمصور، وترتدي كل منهما ثوبًا أسود بياقة بيضاء. تقف دورا برشاقة أمام والدتها وعلى يمينها. في صورة أخرى بيضاوية الشكل، تظهر دورا أكبر سنًا؛ إذ تبلغ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها، وشعرها أطول، ويظهر الأفراد الثلاثة وكأنهم يقفون في طابور الواحد تلو الآخر، وتتجه وجوههم صوب الهدف المنشود. ترتدي كل من دورا ووالدتها بلوزة بيضاء، ويرتدي أرنست سترة وربطة عنق. هناك صورة أخرى لسيسيل بروديه أمام ما يشبه منزلًا

صغيرًا في ضاحية ما. تظهر في مقدمة الصورة على اليسار كتلة من اللبلاب تغطي الجدار. تجلس سيسيل على حافة ثلاث درجات سلَّم خرساني مرتدية ثوبًا صيفيًّا فاتح اللون. في خلفية الصورة يظهر خيال طفل يقف بظهره عاري الفخذين والذراعين ويرتدي سروالًا أسود أو لباس بحر. هل هي دورا؟ تظهر في الصورة أيضًا واجهة منزل آخر صغير خلف حاجز خشبي، يحتوي على فناء ونافذة واحدة في الطابق. أين يمكن أن يكون هذا المنزل؟

هناك صورة أخرى أقدم من السابقة لدورا بمفردها، وهي تبلغ من العمر تسع أو عشر سنوات، تبدو وكأنها كانت تقف على سطح منزل تحت شعاع شمس وحيد، ويحيطها الظل من كل جانب، ترتدي بلوزة وجوربًا أبيض، وتثني ذراعها اليسرى على فخذها، وتضع قدمها اليمنى على حافة خرسانية تبدو وكأنها قفص كبير أو حظيرة دواجن كبيرة، لكننا لا نستطيع تمييزها بسبب الظلال وولا نستطيع تمييز الحيوانات أوالطيور الموصد عليها داخل المكان. يبدو من الظلال ومن أشعة الشمس أن الصورة التُقطت في أحد أيام الصيف.

عاشت دورا أيامًا أخرى من فصل الصيف في كليونكور. اصطحبها والداها لسينما أورناندو بالبناية رقم 43، إذ كان ذلك لا يكلفهم سوى عبور الشارع. أم كانت تذهب بمفردها؟ فقد كانت، وفقًا لابنة خالها، صبية ثائرة ومستقلة ومتحفزة.

كانت غرفتهم بالفندق ضيقة للغاية، لا تتسع لثلاثة أفراد.

لا بد أنها كانت تلعب وهي صغيرة في ميدان كليونكور. كان الحي، في تلك الآونة، يشبه القرية، حيث كان يجلس الجيران بمقاعدهم على الأرصفة يتسامرون مع بعضهم، ويذهبون لاحتساء شراب الليمون على رصيف المقهى. في بعض الأحيان كان بعض الرجال، لا نعرف إن كانوا رعاة غنم أم باعة جائلين، يمرون ومعهم الماعز ويبيعون الكوب الكبير من اللبن بعشرة فلس، وكانت رغوته تترك علامة كالشارب الأبيض.

في بورت كليونكور، كان يوجد مبنى الجمارك وبواباته. على اليسار، بين بلوكات مباني جادة نايي، وسوق المنتجات المتنوعة، يمتد حي بأكمله من الأكواخ الخشبية والعنابر وأشجار السنط وسفوح المنازل المتهدمة. في عمر الرابعة عشرة، جذبتني هذه البقعة الغامضة. لقد تعرفت عليها من صورتين أو ثلاث التقطت في فصل الشتاء، حيث توجد ساحة يمر بها أوتوبيس، وتتوقف شاحنة في المحطة كما لو كان ذلك بشكل دائم. كان هناك ساحة جليدية وعلى حافتها تتوقف عربة متحركة وحصان أسود، وتقع كتلة مباني غير واضحة المعالم في الخلف.

أتذكر أني أحسست للمرة الأولى بالوحشة التي نشعر بها أمام شيء دمرناه وسحقناه. لم أكن أعرف بعد بوجود دورا برورديه. ربما، بل أكاد أجزم أنها كانت تتنزه هنا، في هذه المنطقة التي

تذكرني بلقاءات الأحبَّة السرية، وبالسعادة المفقودة. راودتني أيضًا هنا بعض الذكريات الريفية، وأسماء الشوارع التي كان يُطلَق عليها: طريق البئر، طريق المترو، طريق الحور، ودرب الكلاب.

عندما بلغت دورا في 9 مايو 1940 أربعة عشر ربيعًا، التحقت بداخلية مدرسة قلب مريم المقدس، التي تديرها راهبات مدارس الرحمة المسيحية في البنايات 60 و62 و64 شارع بيكبوس بالدائرة الثانية عشرة. احتوى سجل المدرسة الداخلية على البيانات الآتية:

«الاسم الأول: برورديه، الاسم دورا.

تاريخ ومكان الميلاد: 25 فبراير 1926، الدائرة الثانية عشرة، باريس. الأب أرنست والأم سيسيل بورديج.

الحالة العائلية: طفلة شرعية.

تاريخ الدخول وشروط الالتحاق: 9 مايو 1940 – إقامة كاملة.

تاريخ وسبب الخروج: 14 ديسمبر 1941 – الهروب».

ما الأسباب التي دفعت أبويها لإلحاقها بهذه المدرسة الداخلية؟ لأن استمرار ثلاثة أفراد في الإقامة بفندق في جادة أورنانو كان بالتأكيد أمرًا صعبًا. لقد تساءلت إن كان أرنست أو سيسيل برورديه مهددين بالاعتقال باعتبارهما «رعايا من

الرايخ» أو «نمساويين سابقين»؛ لأن النمسا لم يعد لها وجود منذ عام 1938، بعد أن أصبحت جزءًا لا يتجزأ من «الرايخ».

في خريف 1939، احتُجِز الذكور من رعايا «الرايخ» و«النمساويون السابقون» في معتقلات «جماعية»، وقُسِّموا إلى فئتين: مشتبه بهم، وغير مشتبه بهم. احتُجِز غير المشتبه بهم في استاد إيف دي مانوار ببلدية كولومب. وفي شهر ديسمبر انضموا إلى مجموعات تُسمى «المستفيدين من الإعانات». هل كان أرنست برورديه ضمن تلك الجماعات؟

في 13 مايو 1940، بعد أربعة أيام من عودة دورا من داخلية قلب مريم المقدس، حان دور استدعاء النساء من رعايا «الرايخ» و«النمساويات السابقات» في ملعب فيلودروم الشتوي، واحتجازهن لمدة ثلاثة عشر يومًا. ومع اقتراب القوات الألمانية تقرَّر ترحيلهن إلى بلدة البرانيس الأطلسية في معتقل جوري. هل تلقت سيسيل برورديه استدعاءً هي أيضًا؟

يُصنَّف المحتجز في فئات غريبة لم نسمع عنها من قبل، ولا تتلاءم مع وضعه الحقيقي؛ إذ يُستدعَى ويُحتجَز دون أن يفهم السبب.

إنني أتساءل أيضًا عن الصدفة التي تمكَّن بفضلها سيسيل وأرنست برورديه من معرفة داخلية قلب مريم المقدس. من الذي نصحهما بإلحاق دورا بها؟

أعتقد أنها في عمر الرابعة عشرة قد أثبتت أنها ذات شخصية

استقلالية، والتمرد الذي أخبرتني عنه ابنة خالها قد بدأ يتجلى عليها بلا شك، فاعتقد والداها أنها تحتاج إلى التهذيب. إن تلميذات داخلية قلب مريم المقدس من أصول متواضعة، ويمكننا أن نقرأ في السيرة الذاتية لمديرة هذه المنشأة، فترة التحاق دورا بها، أن «طفلات الداخلية مجهولات الهوية، أو ينتمين لطبقات اجتماعية منحها المسيح أولوياته على الدوام». وفي الكتيبات المخصصة لراهبات مدارس الرحمة، نقرأ «أن على منشأة قلب مريم المقدس تقديم خدمات جليلة لطفلات وفتيات العائلات الفقيرة في العاصمة».

بلغت أعداد الملتحقات بالداخلية ثلاثمائة فتاة، قُسِّمت «البالغات» منهن اثني عشر عامًا حتى ستة عشر عامًا، إلى مجموعتين: «الفصول» و«المشاغل». اختصت مجموعة «الفصول» بإعداد الفتيات للشهادة التكميلية، ومجموعة «المشاغل» بتأهيلهن لشهادة الفنون المنزلية. هل كانت دورا في «المشاغل» أم «الفصول»؟ افتتحت راهبات مدارس الرحمة المسيحية – التي يقع مقرها الأساسي في دير القديس المخلِص لو فيكونت بمنطقة نورماندي– منشأة قلب مريم المقدس عام 1852 بشارع بيكبوس، وتكفلت خمس وسبعون راهبة منذ تلك الحقبة برعاية خمسمائة فتاة من بنات العمال بالداخلية المهنية.

إثر هزيمة يونيو 1941، نزحت الفتيات والراهبات من

باريس ولجأن إلى إقليم ماين ولوار. اضطرت دورا للرحيل معهن واللحاق بآخر القطارات التي تتوقف في محطة أورساي أو أوسترليتز. ثم تابعن السير مع موكب اللاجئين الطويل على الطريق المؤدي إلى نهر لا لوار.

كانت العودة إلى باريس والمدرسة الداخلية في شهر يوليو. لا أعلم شكل الزي الذي كانت ترتديه المقيمات بالداخلية. جُلُّ ما أعرفه كانت الملابس المذكورة في الإعلان الخاص بالبحث عن دورا المؤرخ ديسمبر 1941، وتشمل بلوفرًا بنفسجيًّا، وتنورة كحلية، وحذاء رياضيًّا بُنيًّا؟ وبلوزة فوق التنورة؟ أستطيع أن أستنتج بالتقريب توقيتات أيام الداخلية كالآتي: الاستيقاظ نحو السادسة صباحًا، الكنيسة، قاعات الفصول، المطعم، قاعات الفصول، الفسحة، المطعم، قاعات الفصول، الدراسة المسائية، الكنيسة، المخدع، والخروج كل أحد. أفترض أن الحياة كانت قاسية على تلك الفتيات اللواتي منحهن المسيح أولوياته بصفة دائمة.

وفقًا لما نما إلى علمي، شيدت راهبات المدارس المسيحية بشارع بيكبوس مخيمًا للعطلات في قرية بيتيزيه. لكن هل كانت بيتيزيه القديس مارتين أم بيتيزيه القديس بيار؟ تقع القريتان في دائرة سينليس بمنطقة فالوا. ربما تكون دورا قد قضت بعض الأيام هناك مع زميلاتها في صيف 1941.

اختفت مباني قلب مريم المقدس وشُيدت مكانها عقارات

حديثة تعطي انطباعًا بأن الداخلية كانت تشغل أرضًا شاسعة. لا تتوافر لديَّ أية صورة عن هذه الداخلية التي اختفت. رأيت على خريطة قديمة لباريس موقع المنشأة مدونًا باسم «دار التربية الدينية»، وبها أربعة مربعات صغيرة وصليب يرمز إلى المباني وكنيسة الداخلية. كان المقطع الخاص بموقع الأرض عبارة عن رقعة ضيقة وعميقة تبدأ من شارع بيكبوس وتنتهي في شارع دي رويللي.

تحتوي كذلك الخريطة في الجهة المقابلة لمبنى الداخلية وعلى الجانب الآخر من بيكبوس بالتتابع على: إبراشيات المير دي ديو، وراهبات العبادة، وكنيسة بيكبوس الصغيرة، وجبانة تحتوي على مقبرة عامة تواري أكثر من ألف ضحية أعدموا بالمقصلة في الشهور الأخيرة من الحقبة المرعبة للثورة الفرنسية. في منتصف رصيف الداخلية تقريبًا، تقع الأرض الشاسعة لراهبات القديسة كلوتيلد، ثم مستشفى راهبات دياكنوسيس، حيث ذهبت ذات يوم للعلاج في عمر الثامنة عشرة. أتذكر حديقة دياكنوسيس ولكنني أجهل في أية حقبة استُخدمت هذه المنشأة لإعادة تأهيل الفتيات، تلك المنشأة التي تُماثل تمامًا مبنى قلب مريم المقدس، وتشبه قليلًا داخلية الراعي الصالح. إن تلك الأماكن، التي تحتجز الفتيات دون أن يعرفن ما إذا كن سيخرجن يومًا ما، كانت تحمل أسماءً غريبة مثل داخلية الراعي الصالح بمنطقة آنجيه، مأوى دارنوتال، ملجأ القديسة مادلين في ليموج، ملاذ نازاريث.

تشغل منشآت قلب مريم المقدس في الفترة التي التحقت فيها دورا بالداخلية، العقارات أرقام 60، 62، و64، في الزاوية بين شارع بيكبوس وشارع محطة دي رويللي. تميزت المنطقة بالطابع الريفي، وعلى الجانب الذي تقع فيه العقارات ذات الأرقام الفردية، يمتد سور عال، تكتنفه أشجار الدير.

إن التفاصيل القليلة التي تمكنتُ من جمعها عن هذه الأماكن، ووفقًا لما قد تكون شاهدته دورا يوميًّا لما يقرب من عام ونصف، هي كالآتي: الحديقة الكبيرة كانت تمتد بطول شارع محطة دي رويللي، ويوجد فناء يفصل بين كل مبنى من المباني الثلاثة الرئيسة للداخلية، وتقع خلف تلك المباني الملحقات التابعة لها التي تحيط بالكنيسة. بالقرب من الكنيسة، أسفل تمثال السيدة العذراء وبين الصخور، حُفِر سرداب جنائزي داخل إحدى المغارات ليضم رفات عائلة مادير التي شيدت تلك الداخلية. يُعرف هذا الأثر «بمغارة دي لورد».

لا أعلم إن كانت دورا قد ارتبطت ببعض الصداقات في قلب مريم المقدس، أم أنها آثرت عدم الاختلاط بالأخريات؛ وإذْ لم أحصل على معلومات من إحدى صديقاتها القدامى، فسأظل أعتمد على الافتراضات. لا بد أن يكون لها أصدقاء اليوم في باريس، أو في مكان ما من الضاحية. هناك سيدة في السبعين من عمرها تقريبًا، تتذكر سيارة مدرستها أو الداخلية القديمة.

إنها تلك الفتاة المسماة دورا، خمسة عشر عامًا، 1.55 متر، وجه بيضاوي، عينان عسليتان، رداء رياضي رمادي، بلوفر بنفسجي، تنورة وقبعة كحليتان، حذاء رياضي بني.

إنني أهدف عبر مؤلفي هذا، إلى توجيه بعض النداءات مثل إشارات المنارة، التي قد تضيء هذا الليل، لكنني أشك لسوء الحظ في هذا الأمر، غير أنني أتعلق دائمًا بالأمل.

كان اسم مديرة مدرسة قلب مريم المقدس في تلك الآونة، ماري جون بابتيست. تشير سيرتها الذاتية إلى أنها من مواليد 1903، ثم غادرت بعد ترهبنها إلى مدرسة قلب مريم المقدس بباريس حيث مكثت سبعة عشر عامًا من 1929 حتى 1946. كانت تكاد تبلغ أربعين عامًا عند التحاق دورا بالداخلية.

تشير سيرتها الذاتية إلى أنها ذات طبيعة «استقلالية وسمحة»، وتتمتع بشخصية قوية. توفيت عام 1985، قبل ثلاث سنوات من معرفتي بوجود دورا برورديه. لا بد أنها كانت تتذكرها بسبب هروبها. لكن بعد كل شيء، ما الذي كان يمكن أن تخبرني به؟ بعض التفاصيل؟ بعض الوقائع اليومية الصغيرة؟ لم تكن تستشف بفضل سماحتها، الأفكار التي كانت تدور في رأس دورا برورديه، ولا كيف تعيش حياتها في الداخلية، ولا نظرتها عن الذهاب صباحًا ومساءً إلى الكنيسة، وصخور الزينة في الفناء، وسور الحديقة، والأَسِرَّة المصطفة في المخدع.

لقد اهتديت إلى سيدة كانت تعرف هذه الداخلية، بعد عدة أشهر من هروب دورا برورديه عام 1942. كانت أصغر سنًا من دورا؛ إذ كانت تبلغ آنذاك عشر سنوات تقريبًا. تقتصر ذكرياتها عن قلب مريم المقدس، على ذكريات الطفولة. إنها تعيش حاليًّا بمفردها مع أمها اليهودية من أصل بولندي، شارع دي شارتر، حي جوت دور باتجاه شارع بولونسو، مكان إقامة سيسيل وأرنست برورديه ودورا. ولتجنب الموت جوعًا، اشتغلت الأم في وردية ليلية بورشة لتصنيع أفران الفخار، المخصصة لإمدادات القوات المسلحة الألمانية «فيرماخت». والابنة كانت تذهب لمدرسة في شارع جون فرانسوا ليبين. في نهاية عام 1942، نصحت معلمة دورا أمها بمواراتها عن الأنظار، تجنبًا لمداهمات الشرطة. لا بد أن تكون هي التي دلتها على عنوان مدرسة قلب مريم المقدس.

قُيدت دورا في الداخلية باسم «سوزان ألبير» للتستُّر على أصولها العائلية. لكنها وقعت فريسة للمرض بعد وقت قصير، فنُقلت إلى العيادة لتلقّي الرعاية الطبية على يد الطبيب المقيم. وبعد امتناعها عن تناول الطعام، رفضت العيادة استمرار إقامتها.

في تلك الحقبة، تتذكر تلك السيدة أن فصل الشتاء والستائر الحاجبة للضوء، كان لهما أكبر الأثر في غلبة اللون الأسود على كل شيء في الداخلية، على الجدران، والفصول،

والعيادة باستثناء أغطية الرأس البيضاء للراهبات. إنها تعتقد أن هذا المكان كان أقرب ما يكون إلى ملجأ للأيتام؛ فالنظام كان صارمًا، ويفتقد للدفء، واقتصر الطعام على الملفوف المطبوخ من اللفت، والتلميذات كن يذهبن للصلاة في تمام الساعة السادسة. لكنني نسيت أن أسألها هل كانت السادسة صباحًا أم مساءً.

قضت دورا صيف 1940 في داخلية شارع بيكبوس. كانت تخرج بالتأكيد كل أحد لزيارة والديها اللذين يقيمان في غرفة بالفندق رقم 41 جادة أورنانو. أحاول أن أتخيل المسار الذي كانت تسلكه وأنا أنظر إلى خريطة المترو. إن أبسط الطرق التي كانت تُجنِّبها التنقل عدة مرات بين الخطوط، هي التوجه إلى ناسيون أقرب المحطات للداخلية، وركوب المترو المتجه إلى بون دي سافر، ثم تغيير الخط في محطة ستراسبورج سانت دينيس للتوجه إلى بورت كليونكور، والنزول في محطة سيمبلون التي تقع مباشرة أمام السينما والفندق.

بعد مرور عشرين عامًا على رحلتها هذه، كنت أذهب كثيرًا إلى محطة سيمبلون لركوب المترو، في حوالي الساعة العاشرة مساءً. في ذلك التوقيت، كانت المحطة تخلو من الركاب، وتتباعد الفترات بين مرات عبور المترو للمحطة.

لا بد أنها كانت تسلك الطريق نفسه عند عودتها للداخلية عصر كل أحد. هل كان يصطحبها والداها؟ في محطة ناسيون،

كانت تضطر للسير مسافة ما، فكانت تختار أقصر الطرق إلى بيكبوس، عبر المرور بشارع فابر ديجلانتين.

كان الوضع بالنسبة لها بمثابة العودة إلى السجن. فقد بدأت تتقلص ساعات النهار، ويهبط الليل أثناء عبورها أروقة الداخلية مرورًا بالصخور الصناعية للجبانة الأثرية. كانت تمشي في الأروقة وتذهب إلى الكنيسة لحضور صلاة الأحد المسائية، وتتوجه للمخدع في طابور صامت.

حلَّ بعد ذلك فصل الخريف في باريس. وأعلنت الصحف الصادرة يوم 2 أكتوبر، مرسومًا يقضي بإلزام اليهود بالتوجه للمفوضية لإجراء تعداد لهم. اقتصر الأمر على إقرار يكتبه عائل الأسرة. ولتجنب طول الانتظار، كان على المعنيين التوجه للمفوضية وفقًا للترتيب الأبجدي للأسماء والتواريخ المشار إليها أدنى الجدول.

يوم 4 أكتوبر، حان موعد ذهاب الأشخاص الذين تبدأ أسماؤهم بحرف الباء. في ذلك اليوم، توجه أرنست برورديه إلى مفوضية حي كليونكور لملء الاستمارة، ولم يذكر ابنته. كل فرد من أفراد التعداد كان يحصل على رقم قيد، يُسجل فيما بعد في «بطاقته العائلية» تحت اسم «رقم ملف اليهودي».

حصل أرنست وسيسيل برورديه على ملف اليهودي رقم 49091، ولم تحصل دروا على ملف مماثل.

ربما ارتأى أرنست أن من الصعب اكتشاف أمرها؛ لأنها كانت

تقيم في داخلية قلب مريم المقدس، الكائنة في منطقة معفاة من ذلك التعداد، وهو لا يريد جذب الأنظار إليها. لقد أعتقد أيضًا أن التصنيف «اليهودي» غير ذي أهمية لفتاة تبلغ أربعة عشر عامًا. لقد كان يتساءل في واقع الأمر عن المعنى الدقيق لكلمة «يهودي»؟ هو شخصيًّا لم يطرح على نفسه هذا التساؤل من قبل؛ إذ اعتاد على تعدد تصنيفه وفقًا لتفسير المصلحة الإدارية، وعلى تقبل الأمر دون مناقشة. إنها إحدى الحيل التي يصبح بفضلها نمساويًّا سابقًا، وجنديًّا في فيلق فرنسي، وغير مشتبه به، ومعاقًا بنسبة 100%، وأجنبيًّا يستحق الإعانة، ويهوديًّا. وزوجته سيسيل كانت تصنَّف هي الأخرى كنمساوية سابقة، وغير مشتبه بها، وعاملة حياكة، ويهودية. أما دورا فكانت هي الوحيدة التي أفلتت من تلك التصنيفات، ومن قيدها في الملف رقم 49091.

من يدري؟ ربما تتمكن من الإفلات إلى ما لا نهاية. يكفيها البقاء بين جدران الداخلية السوداء والتأقلم معها، واحترام النظام اليومي صباحًا ومساءً بدقة متناهية، وعدم جذب الأنظار إليها؛ وذلك بالذهاب إلى المخدع، والكنيسة، والمطعم، والفناء، والفصل، والكنيسة، ثم المخدع.

لقد أرادت الصُّدفة – لكن هل كان ذلك فعلًا من قبيل المصادفة؟- أن تكون أثناء وجودها في داخلية قلب مريم المقدس، على بعد عشرات الأمتار من المبنى رقم 15، وفي

الجانب الآخر من الشارع، حيث ولدت في مستشفى روتشيلد، إذ كان شارع سانتير يدخل في نطاق محطة دي رويللي وسور الداخلية.

إنه حي هادئ تظلله الأشجار، ولم يتغير منذ تجولت فيه ذات يوم قبل خمسة وعشرين عامًا، في شهر يونيو 1971. لقد كان هطول المطر يضطرني للتوقف من وقت لآخر في مدخل أحد المباني. لا أدري لماذا انتابني شعور في عصر ذلك اليوم أنني أمشي على خطى أحد الأشخاص.

مع بداية صيف 1942، تحولت المنطقة المحيطة بصفة خاصة بقلب مريم المقدس إلى منطقة خطرة. توالت مداهمات الشرطة لمدة عامين، لمستشفى روتشيلد، ودار الأيتام التي تحمل الاسم نفسه، وشارع لومبلاردي، والمأوى رقم 76 شارع بيكبوس حيث كان يعمل ويقيم المدعو جاسبار ماير الموقع على شهادة ميلاد دورا. لقد كان مستشفى روتشيلد بمثابة المصيدة التي يُرسل إليها مرضى معتقل درانسي، لإعادتهم بعد ذلك إلى المعتقل، وفقًا لأهواء الألمان المرابطين أمام المبنى رقم 15 شارع سانتير، بالتعاون مع أعضاء وحدة فاراليك، إحدى وحدات الشرطة الخاصة. أسفرت هذه المداهمات عن إلقاء القبض على أعداد غفيرة من الأطفال والبالغين في عمر دورا، المختبئين داخل ملجأ روتشيلد بشارع لومبلاردي، وهو أول شارع يقع على اليمين بعد محطة دي رويللي. في الشارع

ذاته، وفي الجهة المقابلة لسور المدرسة تمامًا، أُلقي القبض على تسعة صبيان وبنات، بعضهم في عمر دورا، والبعض الآخر أحدث سنًّا منها، وعلى عائلاتهم كذلك. المكان الوحيد الذي كان بمنأى عن هذه المداهمات هو حديقة وفناء داخلية قلب مريم المقدس، شريطة ألَّا يغادرها الشخص، فيصبح في طي النسيان، محاطًا بجدرانها السوداء، الغارقة هي الأخرى في حظر التجول.

لقد كتبت هذه الصفحات في نوفمبر 1996، شهر سقوط الأمطار في أغلب الأيام. غدًا سوف يبدأ شهر ديسمبر، ويمر خمسون عامًا على هروب دورا. يهبط الليل مبكرًا في هذا الشهر، وهذا أفضل لأنه يمحو كآبة ورتابة الأيام الممطرة، التي نتساءل خلالها عمَّا إذا كنا حقيقة أثناء النهار، أم أننا نعاني من كسوف مؤقت وكئيب يمتد حتى نهاية عصر اليوم. عندئذ تُضاء أنوار أعمدة الشوارع، وواجهات المحلات والمقاهي، ويصبح جو الليل أكثر إنعاشًا، وتتضح الرؤية في الأماكن المحيطة بالأشياء، وتتعرقل حركة المرور في مفترق الطرقات، وتتسارع خطوات المارة. في خضم هذه الحركة والأنوار، أتقبل بالكاد فكرة أنني أعيش في المدينة نفسها التي كانت تعيش فيها دورا ووالداها، ووالدي كذلك الذي كان يصغرني آنذاك بعشرين عامًا. يتولد لديَّ انطباع بأنني الوحيد الذي يقارن بين باريس في تلك الحقبة، وباريس الحالية، ويتذكر كل هذه التفاصيل. مع مرور الوقت، تقلصت أوجه التشابه وتكاد تختفي، فكانت تنعكس في

مخيلتي بعض المشاهد الليلية البراقة والعابرة لمدينة الأمس، خلف المشهد الواقعي للمدينة في وقتنا الحاضر.

لقد قرأت الجزأين الخامس والسادس من البؤساء، اللذين وصف فيهما فيكتور هوجو مطاردة جافير لكوزيت وجون فالجون ورحلتهما الليلية، بدءًا من حي حاجز سانت جاك حتى حي بيكبوس الصغير. يمكننا أن نتتبع على الخريطة جزءًا من خط سيرهما. كانا يقتربان من نهر السين، وبدأ الإنهاك يظهر على كوزيت، فيحملها جون فالجون بين ذراعيه ثم يتابعان سيرهما بموازاة حديقة النباتات عبر الشوارع المنخفضة حتى يبلغا رصيف الميناء، ثم يعبران جسر أوترليتز. لم يكد جون فالجون يضع قدمه على البر الأيمن، حتى اعتقد بوجود بعض الخيالات تظهر على الجسر، فتصوَّرَ أن الطريقة الوحيدة للهروب منها، تستلزم عبور طريق سانت أنطوان الضيق.

وفجأة بدأ جون فالجون وكوزيت يشعران بالدوار، وكأنهما يدوران في دائرة مفرغة كي يتمكنا من الهرب من جافير ورجال شرطته. عندما وصلا لهذه البقعة، كانا يعبران شوارع باريس الحقيقية، ثم وقعا بصورة مفاجئة في حي بباريس أشبه بالخيال، أطلق عليه فيكتور هوجو بيكبوس الصغير. إن هذا الإحساس بالغربة يشبه الإحساس الذي تشعر به وكأنك تمشي في المنام في مكان مجهول، وعندما تستيقظ تدرك شيئًا فشيئًا أن شوارع ذلك الحي تتطابق مع الشوارع المألوفة التي تراها بالنهار.

إن الجزء الذي يثير البلبلة، كان المتعلق بنهاية رحلة هروبهما - عبر الحي الذي اخترع هوجو طبيعته الجغرافية وأسماء شوارعه- عندما حاول جون فالجون وكوزيت الإفلات بإحكام من دورية شرطة بالاختفاء خلف جدار، فإذا بهما في «حديقة شاسعة وفريدة في نوعها، وهي إحدى الحدائق الكئيبة المهيأة فقط للمشاهدة في الشتاء والليل». إنها الحديقة التي سيختبئ بداخلها الاثنان، حديقة الدير الكائن بشارع بيكبوس رقم 62، وهو العنوان الذي حدده بدقة فيكتور هوجو، كما أنه عنوان داخلية قلب مريم المقدس التي كانت تقيم بها دورا بروديه.

يروى فيكتور هوجو قائلًا: «في الحقبة التي حدثت فيها تلك القصة، كانت توجد داخلية ملحقة بالدير (...) ترتدي فتياتها (...) زيًّا كحليًّا وقبعة بيضاء (...) يضم هذا المكان الكائن في بيكبوس الصغير، والمحاط بالأسوار، ثلاثة مبانٍ منفصلة تمامًا عن بعضها: الدير الكبير الذي تقطنه الراهبات، والداخلية التي تُقيم بها التلميذات، وأخيرًا المبنى المسمى «الدير الصغير».

بعد وصف هذه الأماكن بصورة دقيقة، أضاف هوجو قائلًا: «عند مرورنا أمام هذا المأوى الاستثنائي، لم يكن في استطاعتنا منع أنفسنا من الدخول، وحجب الأفكار التي كانت تراودنا وتُردد على أسماعنا قصة جون فالجون الحزينة؛ لأن ذلك ربما يكون في صالح بعض الأشخاص».

أُومِنُ مثل كثيرين غيري بالمصادفات، وبأن بعض الروائيين يتمتعون بموهبة الاستبصار. لم أكن أعني الاستخدام الدقيق لكلمة «موهبة»؛ لأنها توحي بنوع من التعالي. جل ما قصدته أن هذا اللفظ يُعد جزءًا بديهيًّا من مهنة الروائي. إن جهد التخيل الذي يبذله أمر ضروري لمهنته؛ كما أنه يحتاج كذلك إلى تركيز تفكيره، بطريقة حصرية، على التفاصيل الدقيقة حتى لا يفقد الخيط الذي يساعده على تسلسل أفكاره، ويستسلم للتكاسل. إن كل هذا الجهد الذهني وترويض الذاكرة، ينمِّي على المدى الطويل عند الروائي، دون أدنى شك، حدس استنباط «الأحداث الماضية والمستقبلية»، وفقًا لتعريف قاموس لاروس لكلمة «استبصار».

منذ قرأت - في ديسمبر -1988 إعلان البحث عن دورا بروديه في جريدة «باريس سوار» المنشور في ديسمبر 1942، لم أكفَّ عن التفكير فيها لشهور وشهور. تسلط على ذهني ضرورة توضيح بعض تفاصيل الإعلان الدقيقة، مثل المبنى رقم 41 بجادة أورنانو، والطول 1.55م، والوجه البيضاوي، والبلوفر البنفسجي، والتنورة والقبعة الكحليتين، والحذاء الرياضي البني. لكنني كنت أهيم في الليل، والمجهول والغموض، والعدم. تصورت أنني لن أتمكن قط من التوصل إلى أي أثر يدل على دورا بروديه. دفعني هذا الإحساس بالعجز إلى كتابة رواية «رحلة الأفراح»، وهي إحدى الوسائل التي تساعدني على الاستمرار في تركيز اهتمامي على دورا بروديه.

وكنت أحدِّث نفسي بأنها قد تحثني على توضيح أو تخمين أمر ما، أو مكان مرت به، أو أحد تفاصيل حياتها. كنت أجهل كل ما يتعلق بوالديها وظروف هروبها. المعلومة الوحيدة التي عرفتها عنها كان اسمها، دورا بروديه - دون تاريخ ومكان الميلاد- المذكور أعلى اسم أبيها أرنست بروديه في قائمة فيينا رقم 21.5.99، الخاصة بالمسافرين غير حاملي الجنسية ضمن القافلة المتجهة إلى أوشفيتز في 18 سبتمبر 1942.

عند كتابتي لتلك الرواية، تذكرت السيدتين اللتين تعرفت عليهما في الستينيات، واللتين كانتا في سن دورا وهما آن. ب، وبيلا. د، مع فارق شهر بين عمر السيدة الأولى ودورا. عاصرت السيدتان ظروف الاحتلال التي عاشتها دورا، وربما شاركتاها المصير ذاته، دون أدنى شك. أدركت اليوم، أن الأمر استلزم تدويني مائتي صفحة كي أتمكن، لا شعوريًّا، من وضع تصور مبهم للواقع آنذاك.

يتلخص ذلك التصور في بضع كلمات: «توقف المترو في محطة ناسيون. فوَّت كل من ريجو وإنجريد محطة لاباستيل حيث كان من المفترض صعودهما إلى المترو المتجه إلى بورت دوريه. عند مغادرتهما المحطة، انتهى بهما المطاف في ساحة كبيرة من الجليد (...) تمر الزلاجات في الشوارع الضيقة لتوصيل الأشخاص إلى جادة سولت».

تقع تلك الشوارع بجوار شارع بيكبوس وداخلية قلب مريم

المقدس، التي اضطرت دورا إلى الهروب منها ذات مساء من شهر ديسمبر، ربما تحت الأمطار التي تهطل على باريس.

تلك هي اللحظة الوحيدة في الكتاب، التي اقتربت فيها لاشعوريًّا من زمان ومكان دورا.

قرأت في سجل المدرسة الداخلية الخاص بدورا بروديه، في خانة «تاريخ الخروج وأسبابه»: «14 ديسمبر -1941 الهروب».

لقد كان يوم أحد. أعتقد أنها استغلت ذلك اليوم للخروج لزيارة أهلها في جادة أورنانو. وفي المساء لم ترجع إلى الداخلية.

كان هذا الشهر الأخير من العام، من أكثر الفترات قتامة وغمًّا، التي شهدتها باريس منذ بدء الاحتلال. بعد وقوع حادثتي اعتداء، فرض الألمان حظر التجول من 8 إلى 14 ديسمبر بدءًا من الساعة السادسة مساءً. 12 ديسمبر بدأت عملية نهب سبعمائة يهودي فرنسي. 15 ديسمبر، فُرضت غرامة قدرها مليار فرنك على اليهود. وفي صباح اليوم ذاته أعدمت قوات الاحتلال سبعين رهينة رميًا بالرصاص في جبل فاليريان. 10 ديسمبر، صدر مرسوم من قسم الشرطة يُخضِع اليهود الفرنسيين والأجانب في منطقة نهر السين «للمراقبة الدورية»، ويلزمهم بإبراز بطاقة الهوية المختومة «يهودي» أو «يهودية»، وإخطار المفوضية بتغيير محل الإقامة خلال أربع

وعشرين ساعة، كما أصبح محظورًا عليهم منذ ذلك التاريخ مغادرة المنطقة.

منذ الأول من ديسمبر، فرض الألمان حظر التجول على الدائرة الثامنة عشرة، وبالتالي لم يستطع أي شخص الخروج أو الدخول إلى الحي بعد الساعة السادسة مساءً، وأغلقت محطات المترو ومن بينها محطة سيمبلون حيث يقطن أرنست وسيسيل بروديه، وانفجرت قنبلة في شارع شامبيونيه بالقرب من الفندق الذي يقيمان به.

استمر حظر التجول في الدائرة الثامنة عشرة ثلاثة أيام. بعد رفعه بفترة بسيطة، وإطلاق الرصاص على أحد ضباط قوات الاحتلال، فرض الألمان حظرًا مماثلًا على شارع ماجنتا بالدائرة العاشرة، ثم حظرًا عامًّا من 8 إلى 14 ديسمبر، وهو يوم الأحد الذي وافق هروب دورا.

كانت المدينة التي تقع بها داخلية قلب مريم المقدس تتحول إلى سجن مظلم، بعد أن تُطفئ مباني الأحياء أنوارها الواحد تلو الآخر. وبينما كانت دورا تختبئ خلف جدران المبنيين 60 و62، كان والداها محبوسين في غرفة الفندق.

لم تحصل دورا على «رقم ملف»؛ لأن والدها لم يسجلها «كيهودية» في أكتوبر 1940. غير أن المرسوم الخاص بمراقبة اليهود الذي أصدره قسم الشرطة يوم 10 ديسمبر، أكد على ضرورة «تصحيح البيانات في حالة تغير الحالة العائلية». قبل

هروبها، أشك في أن يكون والدها قد سنحت له الفرصة، أو كانت لديه الرغبة في إعداد بطاقة لها؛ إذ اعتقد أن القسم لن يعرف قط بوجودها في داخلية قلب مريم المقدس.

ما الذي يدفعنا إلى الهروب؟ أتذكر أن القاسم المشترك بيني ودورا، يوم فراري يوم 18 يناير 1960 بامتداد طريق عنابر مطار فيلاكوبلاي، كان فصل الشتاء، لكنه كان شتاءً هادئًا ورتيبًا، ومختلفًا عن شتاء ديسمبر 1941 الذي انقضى منذ ثمانية عشر عامًا وشهد ظلام عصر الاحتلال. أعتقد أن رتابة إحدى الليالي الباردة، التي تشعل وطيس الوحدة، وتزيد من إحساسنا بالاختناق، هي التي تدفعنا إلى الفرار المفاجئ.

يوم الأحد الموافق 14 ديسمبر، بدأ سريان رفع حظر التجول الذي فرضه الألمان قبل أسبوع، وأصبح في مقدور سكان المدينة السير في الشوارع بعد السادسة مساءً، غير أن الليل كان يهبط بعد العصر بسبب التوقيت الألماني.

متى اكتشفت راهبات الرحمة اختفاء دورا يوم هروبها؟ بالتأكيد في المساء، ربما بعد الصلاة في الكنيسة أثناء صعود فتيات الداخلية إلى المخدع. أفترض أن المديرة أسرعت إلى الاتصال بوالديها للسؤال عمَّا إذا كانت لا تزال تمكث معهما. هل كانت تعرف أن دورا ووالديها يهود؟ لقد ذكرت سيرتها الذاتية أن «داخلية قلب مريم المقدس تحولت إلى ملاذ للعديد من طفلات العائلات اليهودية، نظرًا للعمل الخيري والجريء الذي

تؤديه الراهبة ماري جون بابتيست، التي لم تتراجع أمام أية مخاطرة بفضل المساعدة السرية والمواقف الشجاعة للراهبات الأخريات».

غير أن حالة دورا كانت استثنائية. لقد التحقت بقلب مريم المقدس في شهر مايو 1940، وهي الفترة التي لم تكن الملاحقات قد بدأت فيها بعد، كما أن كلمة «يهودي» لم تكن تعني شيئًا كبيرًا بالنسبة لها، ولم يشملها إحصاء أكتوبر 1940؛ وعلاوة على ذلك فإن المؤسسات الدينية لم تبدأ في إخفاء الطفلات اليهوديات إلا اعتبارًا من يوليو 1941 بعد حقبة المداهمة الكبرى. لقد أمضت دورا عامًا ونصف العام في قلب مريم المقدس، وكانت بالتأكيد التلميذة اليهودية الوحيدة في الداخلية، التي تجهل صديقاتها والراهبات حقيقة هويتها.

في أقصى الفندق رقم 41 الكائن بجادة أورنانو، يمتلك مقهى مارشال الهاتف رقم 4474 التابع لمنطقة مونمارتر، لكنني أجهل إن كان متصلًا بالفندق، وإن كان مارشال هو مالك المبنى. لم يحتوِ دليل التليفونات آنذاك على بيانات داخلية قلب مريم المقدس. لكنني عثرت على عنوان مدارس راهبات الرحمة المسيحية، 64 شارع سانت مور، وهو الملحق الذي أُضيف بالتأكيد لمبنى الداخلية عام 1942. هل ذهبت دورا إلى هذا المبنى؟ لا أعتقد ذلك، لأنه لم يكن مزودًا بهاتف.

من يدري؟ ربما انتظرت المديرة حتى صباح يوم الاثنين

لإجراء الاتصال من مقهى مارشال، أو إرسال إحدى الراهبات إلى العقار رقم 41 بجادة أورنانو، هذا في حالة إن لم يكن سيسيل وأرنست بروديه قد ذهبا شخصيًّا إلى المدرسة الداخلية.

علينا معرفة ما إذا كان الجو صحوًا يوم هروب دورا في 14 ديسمبر. ربما كان أحد أيام الشتاء المعتدلة والمشمسة، التي تمنح الشخص إحساسًا بقضاء عطلة أبدية، ذلك الإحساس الوهمي الذي يعطيه انطباعًا بأن الزمن توقف، وعليه اجتياز تلك الثغرة للإفلات من الطوق الذي سوف يُطْبِق عليه.

ظللت لمدة طويلة أفتقر للمعلومات المتعلقة بدورا في الفترة بين هروبها يوم 14 ديسمبر، والإعلان المنشور للبحث عنها في جريدة «باريس سوار». ثم علمت أنها احتُجزت يوم 13 أغسطس 1942، بعد مضي ثمانية أشهر، في معتقل درانسي. أشارت بطاقتها إلى أنها كانت قادمة من معتقل توريل. في ذلك التاريخ، غادر ثلاثمائة يهودي معتقل توريل إلى معتقل درانسي.

شغل «المعتقل»، أي المحبس أو بالأحرى مركز احتجاز اليهود في توريل، مباني إحدى ثكنات المستعمرة القديمة لجنود المشاة، ثكنة توريل رقم 141 جادة مورتييه بحي بورت دي ليلاس، التي استقبلت اليهود الأجانب ذوي الأوضاع «غير المستقرة». وبعد ترحيل الرجال مباشرة إلى درانسي أو معتقلات لواريه، اقتصر احتجاز النساء اليهوديات في معتقل

توريل بدءًا من عام 1941، على المخالفات للأوامر الألمانية والقانون العام والشيوعيات.

متى ولماذا بالضبط أُرسِلت دورا إلى توريل؟ تساءلت عن وجود وثيقة أو أثر يجيب على تساؤلي، لكنني لجأت إلى الافتراضات. لقد أوقفوها بالتأكيد في الشارع. في شهر فبراير 1942، أصدر الألمان مرسومًا يحظر على يهود باريس مغادرة منازلهم بعد الثامنة مساءً، أو تغيير مقار إقامتهم؛ فأصبحت بالتالي مراقبة الشوارع أكثر صرامة من الشهور السابقة. وانتهى بي الأمر إلى إقناع نفسي أن كمائن شرطة تفتيش اليهود كانت تتمركز في شهر فبراير الكئيب والمعروف ببرده القارس، على مداخل السينمات ومخارج المسارح، حيث ألقي القبض على دورا. كنت أتعجب كيف استطاعت فتاة تبلغ ستة عشر عامًا، الفرار من الشرطة التي تعرف أوصافها بعد اختفائها في شهر ديسمبر، ومن عمليات البحث عنها كل هذه الفترة، أو على الأقل العثور على مخبأ. وأين هذا المخبأ الذي آواها في باريس خلال فصلي شتاء 1941 – 1942، وهي الحقبة الشتوية الأكثر قتامة وقسوة أثناء فترة الاحتلال، التي كانت تتساقط فيها الثلوج، وتصل درجة الحرارة في يناير إلى خمس عشرة درجة تحت الصفر، وتتجمد المياه في كل مكان، وتظهر طبقات الجليد، ثم يسقط الثلج من جديد بغزارة في شهر فبراير؟ أين إذن كان مخبؤها؟ وكيف تمكنت من النجاة في تلك الظروف بباريس؟

أعتقد أنها وقعت في «قبضتهم» في شهر فبراير. لكن قبضة «من»؟ أفترض أنهم مجرد مراقبي عملية السلام، أو مفتشي الفرقة المسئولة عن التحقق من هويات اليهود في الأماكن العامة.. لقد قرأت في أحد كتب المذكرات، أن إرسال الفتيات البالغات ثمانية عشر أو تسعة عشر عامًا إلى توريل، شمل «المخالفات للقوانين البسيطة أو «الأوامر الألمانية»، وأن بعضهن كنَّ يبلغن ستة عشر عامًا، وهو عمر دورا.. في هذا الشهر، اعتقل بعض مفتشي فرقة الشرطة المسئولة عن التحقق من هويات اليهود، أبي في الشانزليزيه، مساء الليلة التي بدأ فيها تطبيق الأوامر الألمانية، عند أحد المتاريس أمام مطعم بشارع مارينيان، حيث كان يتناول عشاءه مع أحد أصدقائه. طلب المفتشون أوراق إثبات الهوية من الزبائن جميعهم، ولم يكن أبي يحمل بطاقته، فقاموا بترحيله داخل سيارة السجن، من الشانزليزيه إلى شارع جريفولهيه، حيث مقر الشرطة المسئولة عن اليهود، وقد لمح بين أطياف المرحَّلين ظل شابة تبلغ تقريبًا ثمانية عشر عامًا، ولم يرَها بعد أن اصطحبتها مفتشة الشرطة إلى أحد أدوار المباني التي تشغلها هي ورئيس مكتبها، أحد مفوضي منطقة شيبلن، ثم نجح أبي في الفرار أثناء هبوطه السلَّم المؤدي إلى مكان احتجازه.

كانت المرة الأولى والأخيرة التي ذكر فيها أبي هذه الفتاة، عندما كان يحكي لي ذات مساء من شهر يونيو 1963، المغامرة التي تعرَّض لها، أثناء جلوسنا في مطعم بالشانزليزيه يقع

تقريبًا في مواجهة المكان الذي اعتُقِل فيه قبل عشرين عامًا. لم يذكر لي أبي أية تفاصيل عن هيئتها أو ملابسها، وكنت قد نسيت أمرها حتى اليوم الذي علمت فيه بوجود دورا بروديه، فتذكرت تلك الفتاة الموجودة في سيارة الترحيلات مع أبي وغيره من المجهولين في هذا المساء من شهر فبراير، وتساءلت عما إذا كانت هذه الفتاة المقبوض عليها هي دورا بروديه، وذلك قبل ترحيلها إلى توريل.

ربما أكون قد تمنيت أن يلتقيها أبي في شتاء 1942؛ لأنه على الرغم من اختلاف كل منهما عن الآخر، إلا أنهما ينتميان ذلك الشتاء إلى فئة المخالفين نفسها. فأبي لم يسجل نفسه في إحصاء أكتوبر 1940، مثل دورا، ولم يكن يحمل رقم «ملف يهودي»؛ وبالتالي كانت إقامته غير شرعية، فقطع علاقاته بالعالم الخارجي الذي يستلزم تحديد المهنة، والعائلة، والجنسية، وتاريخ الميلاد، ومحل الإقامة. واستمر، منذ ذلك الحين، في تغيير مكان إقامته، وبات وضعه شبيهًا بوضع دورا بعد هروبها.

لقد انشغل تفكيري في مصيرهما المختلف. لم تكن هناك أماكن كثيرة يمكن أن تلجأ إليها فتاة في السادسة عشرة من عمرها، مسئولة عن نفسها، في شتاء باريس 1942، بعد هروبها من المدرسة الداخلية. لقد ارتكبت مخالفتين، من وجهة نظر الشرطة والسلطات آنذاك؛ فهي يهودية قاصر، وهاربة.

أما أبي، الذي كان يكبر دورا بخمسة عشر عامًا، فقد كان يعرف طريقه جيدًا؛ إذ استغل عدم توصيف وضعه كخارج على القانون، للتحايل لكسب عيشه خارج باريس، والتيه وسط مستنقعات السوق السوداء.

لقد علمت منذ فترة ليست ببعيدة، أن فتاة سيارة الترحيلات لا يمكن أن تكون دورا. حاولت أن أبحث عن اسمها بين قائمة النساء المحتجزات في معتقل توريل، فوجدت أن اثنتين منهم قد نقلتا إلى توريل يومي 18 و19 فبراير 1942، وهما سيما برجيه وفريدل تريستر، يهوديتان بولنديتان تبلغان عشرين وواحدًا وعشرين عامًا، ويتطابق تاريخ دخولهما مع تاريخ دورا، لكن أي منهما هي دورا؟ بعد انقضاء فترة احتجاز المخالفين بأحد أماكن الحجز، كان يُرحل الرجال إلى معتقل درانسي والنساء إلى توريل. ربما تكون هذه الفتاة المجهولة قد فرت مثل أبي من المصير المشترك الذي كان ينتظرهما. أعتقد أنها سوف تظل على الدوام مجهولة الهوية، هي وكل المجهولين الذين أوقفتهم السلطات تلك الليلة. لقد تخلص رجال شرطة مراقبة اليهود، أثناء حملات مداهمة المخالفين أو أثناء القبض عليهم في الشوارع، من إثباتات الشخصية الخاصة بالمقبوض عليهم، ومن محاضر استدعائهم. ولولا تدويني لتلك الوقائع، لاختفى أي أثر عن وجود تلك الفتاة المجهولة وعن أبي في سيارة الترحيلات من الشانزليزيه في شهر فبراير 1942، وكان من المحتمل أن يصبحا – بعد مماتهما أو في حياتهما–

مدرجين في فئة «مجهولي الهوية».

بعد مرور عشرين عامًا، كانت أمي تمثل في مسرحية على مسرح ميشيل، وكنت أنتظرها في أغلب الأحوال، في مقهى بزاوية شارعي ماتورينس وجريفولهيه. لم أكن أعرف بعد أن أبي خاطر بحياته في هذا المكان، وأنني سوف أعود إلى منطقة كانت بمثابة الثغر المظلم. كنا نتناول عشاءنا أحيانًا في مطعم بشارع جريفولهيه، ربما أسفل مبنى مقر شرطة مراقبة اليهود، حيث اقتيد أبي إلى مكتب المفوض جاك شويبلن، وهو من مواليد مولهاوس عام 1901، وكان رجاله يفتشون معتقلات درانسي وبيثيفييه، قبل ترحيل المحتجزين إلى أوشفيتز:

«كان السيد شويبلن، رئيس شرطة مراقبة اليهود، يذهب إلى المعتقل بصحبة خمسة أو ستة مساعدين، من الذين يُطلق عليهم «الشرطة المعاونة»، وكان يكتفي بالتعريف بنفسه. كان أولئك الرجال يرتدون الملابس المدنية ويضعون مسدسًا في أحد جانبي جراب الوسط، ومطرقة في الجانب الآخر.

بعد تمركز معاونيه في مواقعهم، كان السيد شويبلن يغادر المعتقل ويعود في المساء لجباية غلة المداهمة، إذ كان يجلس كل مساعد داخل كبينة خشبية، ويضع على الطاولة التي أمامه وعاءين، أحدهما لتحصيل العملات النقدية والآخر لجمع المجوهرات. كان طابور عرض المحتجزين يمر أمام فرقة التفتيش، ويتعرض للسباب والتفتيش الدقيق. وفي كثير

من الأحيان كانوا يضطرون لخلع سراويلهم والتعرض للركل بالأقدام مع سماع التعليقات الآتية: «كيف الحال؟! هل ما زلت تبغي الحصول على اللحم من الشرطة؟». وكانت تُمزَّق الجيوب الداخلية والخارجية لسراويلهم بفظاظة بحجة تنشيط عملية التفتيش. لن أتحدث عن تفتيش النساء الذي كان يجرى في أماكن خاصة.

بعد إتمام عملية التفتيش، كانت تُكدَّس الأموال والمجوهرات عشوائيًّا في حقائب مُحكَمة الإغلاق بأحزمة وبكُلابة من الرصاص، لتوضع في سيارة السيد شويبلن.

لم يكن إجراء إغلاق الحقائب يُجرَى بأمانة تامة؛ لأن رجال الشرطة كانوا يحتفظون بالكُلابة، فكان في استطاعتهم سلب النقود والمجوهرات، كما كانوا أحيانًا يخرجون من جيوبهم بعض الخواتم الثمينة ويقولون: «خذ هذا مزيف!» أو رزمة من النقود فئة 1000 أو 500 فرنك ويرددون: «أمسك، لقد نسيت هذا». كانت تُجرى أيضًا زيارات لتفتيش أسِرَّة المآوي الخشبية، وشق المراتب والأغطية والوسادات. ولم تترك عمليات البحث كافة، التي انتهجتها شرطة مراقبة اليهود أي أثر وراءها»(*). (يوضع أسفل الصفحة في هامش: * وفقًا لتقرير إداري صاغه أحد مسئولي خدمة التحصيل بمنطقة بيثيفييه في نوفمبر 1943).

فريق التفتيش كان يضم سبعة رجال وسيدة، وكان ثابت

التشكيل ولا يذكر أسماء المشاركين الذين كانوا في تلك الآونة في سن الشباب، ولا يزال البعض منهم على قيد الحياة، لكننا لا نستطيع التعرف عليهم.

اختفى شويبلن عام 1943، ربما بعد استغناء الألمان عنه. اعتقد أبي، عندما كان يحكي لي واقعة مروره على مكتب هذا الرجل، أنه رآه ذات أحد بعد الحرب في بورت ماليو.

لم تتغير كثيرًا سيارات الترحيل حتى بداية الستينيات. المرة الوحيدة التي ركبت فيها إحداها، كنت مع أبي. إنني أذكر هذه الواقعة الطارئة؛ لأنها كانت بالنسبة لي واقعة ذات مغزى.

لقد حدثت في ظروف شديدة الابتذال؛ إذ كنت أبلغ آنذاك الثامنة عشرة وكنت لا أزال قاصرًا. كان ذلك بعد انفصال أبوي، اللذين ظلَّا يقطنان المبنى نفسه. أبي كان يعيش مع سيدة صفراء الشعر، وعصبية للغاية، تعتقد أنها نسخة مقلدة للممثلة ميلين ديمونجو. وأنا كنت أعيش مع أمي. نشب في ذلك اليوم شجار بينهما على درجات السلّم، بسبب النفقة الزهيدة التي كان يضطر أبي لدفعها لإعالتي بعد إجراءات تقاضٍ متعددة المراحل بدأت بالمحكمة العليا لمنطقة السين، ثم الدائرة الأولى لمحكمة الاستئناف، ثم إخطار بالإيقاف المؤقت. أرادت أمي أن أقرع باب شقته وأطالبه بالمبلغ الواجب دفعه. لم نكن للأسف نملك ما نقتات به في حياتنا سوى هذا المبلغ. توليت هذه المهمة على مضض، وقرعت بابه عازمًا على التحدث

معه بلطف، بل الاعتذار عن هذا التصرف. لكنه أوصد الباب في وجهي، وسمعت ميلين ديمونجو المزيفة تصرخ وتستنجد بالشرطة مرددة أن هناك «صبيًّا عديم التربية يثير الصخب».

بعد مضيّ عشرات الدقائق، حضر رجال الشرطة عند والدتي، وصعدت أنا ووالدي إلى سيارة الترحيلات التي كانت تنتظر أمام المنزل. جلسنا في مواجهة بعضنا على الدكك الخشبية، وجلس على جانبي كل واحد منا حارسا أمن . فكرت أنه إذا كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أتعرض فيها لمثل ذلك الموقف، فإن أبي تعرض له قبل عشرين عامًا عندما شحنه مفتشو شرطة مراقبة اليهود في سيارة ترحيلات شبيهة بالتي كنا بداخلها. وسألت نفسي: هل كان يفكر هو الآخر في اللحظة ذاتها في هذه الواقعة؟ لكنه كان يتظاهر بعدم رؤيتي ويتجنب النظر إليّ.

أتذكر جيدًا المسار الذي سلكناه، وأماكن التوقف، وشارع سانت بار، وجادة سان جرمان، والتوقف في الإشارة الحمراء، بمحاذاة رصيف مقهى ومطعم دي ماجو. كنت أرى من خلف القضبان الحديدية للشباك الرواد الجالسين على رصيف المقهى، وكنت أحسدهم على جلوسهم في الشمس. لكنني لا أتعرض لخطر كبير؛ إذ كنا نعيش لحسن حظنا حقبة لا نتعرض فيها للأذى، حقبة مسالمة أطلقنا عليها فيما بعد «الأعوام الثلاثين المجيدة».

غير أنني كنت أتعجب من موقف أبي، الذي لم يُبْدِ أي تحفظ على تركهم يصطحبونني في سيارة الترحيلات، على الرغم من المعاناة التي عرفها في عصر الاحتلال. لقد كان يجلس أمامي هادئ الأعصاب، ويعطي انطباعًا باشمئزاز مبهم، وكان يتجاهلني كما لو أنني شخص موبوء، وكنت أتخوف من الوصول إلى مخفر الشرطة دون أي تعاطف من جانبه. اعتقدت آنذاك أن هذا الموقف غير عادل؛ لأنني كنت قد بدأت تأليف أول كتاب لي أروي فيه، من وجهة نظري، الضيق الذي كان يشعر به أبي إبان الاحتلال، فقد عثرت منذ بضعة أعوام في مكتبته الخاصة على بعض الكتب الصادرة في الأربعينيات من تأليف كتاب معادين للسامية، كان قد اشتراها في تلك الحقبة دون أدنى شك في محاولة منه لفهم ما ينسبه إليه هؤلاء الأشخاص. إنني أتخيل دهشته من وصفهم لهذا الوحش وتصوريهم لطيف تهديده الذي ينساب على الجدران، ذلك الكائن ذي الأنف المعقوف واليد الباطشة، الفاسد والآثم والمسئول عن كل تلك الآلام والجرائم. لقد أردت من أجل أبي أن أتصدى لأولئك الأشخاص الذين جرحتني إهاناتهم له. لقد أردت أن أفحمهم بواسطة النثر الفرنسي. إنني أشعر الآن بالسذاجة الطفولية لمشروعي هذا؛ لأن معظم أولئك المؤلفين اختفوا، أُعدموا رميًا بالرصاص، نُفوا، أصابهم الخرَف، أو ماتوا من الشيخوخة. نعم، لقد وصلت متأخرًا جدًّا لسوء الحظ.

توقفت سيارة الترحيلات في شارع دي لاباي، أمام مخفر

شرطة حي سان جرمان دي بريه. قادنا رجال الأمن إلى مكتب مفوض الشرطة. أخبره أبي بصوت جاف أنني «صبي سيئ الخلق» يأتي «لإثارة الضجة في مسكنه» منذ كان عمري سبعة عشر عامًا. أخبرني المفوض بالنبرة التي يخاطب بها المجرم، أنه في المرة القادمة سوف «يحتجزني في القسم». شعرت جيدًا أن أبي لن يحرك ساكنًا إذا نفذ المفوض تهديده وأرسلني إلى الحجز.

خرجنا أنا وأبي من القسم. سألته: هل كان الأمر يستدعي طلب نجدة الشرطة و«الشهادة ضدي» أمام رجال الشرطة؟ لم يجبني، ولم أكن أرغب في الحصول على إجابة منه. واصلنا السير معًا ونحن صامتان جنبًا إلى جنب في الطريق نفسه؛ لأننا نسكن في ذات البيت. وكنت على وشك أن أذكِّره بليلة شهر فبراير 1942، حين وضعوه داخل سيارة الترحيلات، وأن أسأله إن كان يتذكرها في الوقت الحالي. غير أن اهتمامي بهذا الموضوع قد يفوق اهتمامه به.

لم نتفوه بكلمة واحدة أثناء سيرنا وصعودنا درجات السلَّم، قبل أن نفترق عن بعضنا. لقد كنت مجبرًا على لقائه مرتين أو ثلاث مرات في شهر أغسطس من العام التالي، حين قام بتسريب أوراق تجنيدي في محاولة منه لتجنيدي قسرًا في ثكنة دي روي. ولم أرَه قط بعد ذلك.

إنني أتساءل عن حال دورا برورديه يوم 14 ديسمبر 1941

في اللحظات الأولى لهروبها. ربما تكون قررت ألا ترجع إلى الداخلية في اللحظة التي وصلت فيها إلى رواق المبنى، وظلت تهيم على وجهها في الحي طوال المساء حتى ساعة حظر التجول.

لا يزال هذا الحي يحتفظ بالأسماء الريفية للشوارع، مثل الطحانين، وثغرة الذئاب، ودرب الكرز البري. في نهاية الشارع الذي تظلله الأشجار التي تكسو سياج حرم قلب مريم المقدس، توجد محطة نقل البضائع، وعلى مسافة أبعد منها تقع محطة ليون لو واصلنا السير بمحاذاة شارع دوسينيل. تمر السكك الحديدية على بعد عدة مئات من الأمتار من الداخلية التي كانت دورا تُحبس داخلها. إن هذا الحي الهادئ، الذي يبدو وكأنه بمنأى عن باريس بأديرته، وجباناته السرية، وشوارعه الساكنة، هو أيضًا نقطة الانطلاق إلى أحياء أخرى.

لا أعلم إن كان قرب محطة ليون هو الذي شجع دورا على الهروب. ولا أعلم إن كانت تسمع من المخدع، وسط صمت الليل والستائر الحاجبة للضوء، صخب قطار البضائع أو القطارات التي كانت تنطلق من محطة ليون إلى المنطقة الحرة.. لقد كانت تدرك بلا شك معنى تلك الكلمتين المضللتين: المنطقة الحرة.

في الرواية التي كنت أكتبها، ودون أن أعرف شيئًا عن دورا برورديه، ومن أجل أن يظل تفكيري منشغلاً بها؛ جعلت الفتاة

التي أسميتها إنجريد وعمرها مماثل لعمر دورا، تلجأ هي وصديقها إلى المنطقة الحرة. لقد كنت أفكر أيضًا في بيلا. د، القادمة هي أيضًا من باريس في الخامسة عشرة من عمرها، وعبرت خط الحدود متسللة فانتهى بها الأمر إلى سجن تولوز. فكرت أيضًا في آن. ب التي اعتُقلت في سن الثامنة عشرة في محطة شالون سيرساون لعدم حملها تصريح مرور، وحُكِم عليها بالسجن اثني عشر أسبوعًا.. تلك هي الروايات التي روتها لي هاتان السيدتان في الستينيات.

هل قامت دورا برونديه بالتدبير مسبقًا لذلك الهروب مع صديق أو صديقة؟ هل ظلت في باريس أم حاولت العبور إلى المنطقة الحرة؟

وجدت بعض المعلومات المدونة في سجل بيانات مخفر شرطة حي كليونكور المؤرخ 25 ديسمبر 1941، في الخانات الآتية: التاريخ والوجهة، الحالة المدنية– ملخص القضية:

«27 ديسمبر 1941. دورا برونديه. تاريخ الميلاد 25/2/26. باريس. العقار رقم 41 جادة أورنانو. الدائرة الثانية عشرة، بشهادة والدها أرنست برونديه 45 عامًا».

ذُكِرت في الهامش الأرقام الآتية : 7029 21/12 دون أن أدرك إلى أي شيء تشير.

كان مخفر حي كليونكور يشغل المبنى رقم 12 شارع لومبار خلف هضبة مونمارتر، ومفوضه كان يسمى سيري. غير

أنه من المحتمل أن يكون أرنست برورديه قد ذهب إلى مخفر الدائرة، الذي يقع في الجهة اليسرى من البلدية، في المبنى رقم 74 شارع مونتسيتيس، والذي كان يُعد أيضًا مركزًا لمخفر كليونكور؛ لأنه أقرب إلى مسكنه. كان مفوض ذلك المخفر يسمى كورنك.

انتظر أرنست ثلاثة عشر يومًا بعد هروب دورا ليذهب إلى المخفر ويسجل اختفاء ابنته. إننا نتخيل حزنه وتردده خلال تلك الأيام الطويلة؛ لأنه لم يكن قد سجل دورا في تعداد أكتوبر 1940 في المخفر عينه، ورجال الشرطة كانوا على وشك اكتشاف ذلك؛ فمحاولة البحث عنها كانت تجذب الانتباه إليها.

لم يَرِد المحضر الخاص بأقوال أرنست برورديه في أرشيف قسم الشرطة. لقد كانوا بالتأكيد يعدمون مثل تلك الوثائق بعد تقادمها. فقد أُعدِمت، بعد الحرب بعدة أعوام، بعض السجلات الأخرى التي بدأت تدوين البيانات في يونيو 1942، خلال الأسبوع الذي استلم فيه كل فرد من المصنَّفين «كيهود» النجمات الصفراء الثلاث بعد بلوغه سن السادسة. كان هذا السجل يحتوى على هوية «اليهودي»، ورقم بطاقته الشخصية، ومقر إقامته، وتوقيعه في خانة هامشية بعد حصوله على النجمات الثلاث. وهكذا، فتحت مخافر باريس وضاحيتها أكثر من خمسين سجلًا.

لن نتمكن قط من معرفة الأسئلة التي أجاب عليها أرنست

برودیه المتعلقة بابنته وبشخصه. ربما استجوبه أحد مسئولي الشرطة المعتادين على العمل الروتيني، كما كان عليه الحال قبل الحرب، حيث لم يكن هناك تفرقة بين أرنست برودیه وابنته وعامة الفرنسيين. لقد كان هذا الرجل بالتأكيد، «نمساويًّا سابقًا»، مقيمًا في فندق، وعاطلًا. لكن ابنته وُلدت في باريس وتحمل الجنسية الفرنسية. إنها مراهقة هاربة، وكان ذلك يتكرر كثيرًا في تلك الحقبة المضطربة. هل رجل الشرطة هو الذي نصح أرنست برودیه بنشر إعلان في جريدة «باريس سوار»، بعد مُضِيّ أسبوعين بالفعل على اختفاء دورا؟ أم أنه موظف بجريدة مسئول عن جمع «أخبار متنوعة» ويقوم بجولات في مخافر الشرطة هو الذي التقط بالصدفة هذا الإعلان بين أحداث يومية أخرى عديدة لينشرها في باب من «الأمس إلى اليوم»؟

إنني أتذكر الانطباع القوي الذي أحسست به عند هروبي في يناير 1960؛ لقد كان انطباعًا قويًّا لدرجة لم أعهدها من قبل إلا في حالات نادرة. لقد كان بمثابة النشوة التي تقطع بضربة واحدة الروابط جميعها، وتقطع بصورة مفاجئة وطوعية أواصر النظام الذي تفرضه عليك المدرسة الداخلية، والأساتذة، وزملاء الفصل، وتقاطع الأهل الذين لم يعرفوا كيف يحبونك وتحدث نفسك بأنه لا أمل يُرجى منهم، إنها نشوة الإحساس بالثورة والوحدة التي تصل قمة تأججها وتقطع أنفاسك وتجعلك في حالة من انعدام الاتزان. إنها بلا شك إحدى اللحظات النادرة في حياتي التي كنت أشعر فيها بذاتي، وأسير على هدي خُطاي.

لا يمكن أن تدوم هذه النشوة طويلًا؛ لأنها بلا مستقبل، إذ سرعان ما تشعر بانكسار واضح في اندفاعك.

يُعد الهروب – كما يبدو– نداء استغاثة، وفي بعض الأحيان شكلًا من أشكال الانتحار. لكنك تشعر بالرغم من هذا بإحساس قصير بالأبدية؛ فأنت لم تقطع الأواصر مع العالم فحسب، بل أيضًا مع الزمن. وقد تشعر في آخر النهار أن السماء زرقاء صافية ولا شيء يُثقل عليك، وتتوقف عقارب ساعة حديقة دي توبليري عن التحرك للأبد، والنملة لا تستطيع عبور سفع الشمس.

إنني أفكر في دورا بروديه، وأحدّث نفسي أن هروبها لم يكن سهلًا كهروبي الذي حدث بعدها بعشرين عامًا في عالم غير عدائي كعالمها. فهروبها كان في شهر ديسمبر الذي شهدته المدينة عام 1941، في ظل حظر التجول، وانتشار الجنود والشرطة؛ لقد كان كل شيء عدائيًّا ويرغب في ضياعها. في عمر السادسة عشرة، كان العالم بأسره ضدها، دون أن تعرف سببًا لذلك.

شهدت باريس في تلك الأعوام نوعًا آخر من الثائرين، يعانون من الوحشة ذاتها التي عانت منها دورا بروديه؛ فكانوا يلقون القنابل اليدوية على الألمان، وعلى مواكبهم وأماكن اجتماعاتهم. لقد كانوا في مثل عمر دورا، وظهرت صور لوجوه البعض منهم في الملصق الأحمر، إنني لا أستطيع أن أمنع

نفسي من التفكير فيهم مثل دورا.

في صيف 1941، عُرض في مدينة نورماندي، أحد الأفلام التي صُوِّرت منذ بدء الاحتلال، ثم عُرض بعد ذلك في سينمات الحي. لقد كان فيلمًا كوميديًّا بعنوان «اللقاء الأول». ترك لديَّ هذا الفيلم، في المرة الأخيرة التي شاهدته فيها، انطباعًا غريبًا لا تبرره الحبكة البسيطة ولا لهجة الأبطال المرحة. كنت أحدث نفسي بأن دورا برروديه ربما تكون في يوم من أيام الأحد، شاهدت هذا الفيلم الذي يروي قصة هروب فتاة في مثل عمرها من مدرسة داخلية شبيهة بقلب مريم المقدس، وقابلت أثناء هروبها شابًا يُسمى في الأساطير فتى الأحلام.

يُعد هذا الفيلم النسخة الوردية والملطفة للأحداث التي صادفتها دورا في حياتها الواقعية. هل هو الذي ألهمها فكرة الهروب؟ سوف أركز اهتمامي على التفاصيل: المخدع، وممرات الداخلية، زي المقيمات، المقهى الذي تنتظر فيه البطلة عند هبوط الليل.. لم أجد شيئًا في هذا الفيلم يمكن أن يتفق مع الواقع، كما أن معظم مشاهده صُورت في الاستوديو. أصابني الضجر بسبب الإضاءة بصفة خاصة، وتصويره غير النقي، إذ تبدو الصور وكأن ساترًا يحجب رؤيتها مما يزيد من حدة التناقض بينها، بل يصل لدرجة طمسها في بعض الأحيان فيجعل الجزء الشمالي منها أبيض اللون. لقد كانت الإضاءة أحيانًا واضحة جدًّا، وأحيانًا أخرى قاتمة للغاية. والأصوات كانت تختفي تارةً

أو تتصاعد نبرتها تارةً أخرى بصورة مزعجة.

لقد أدركت فجأة أن تأثير هذا الفيلم كان مرتبطًا بوجهات نظر المشاهدين له في حقبة الاحتلال؛ فقد شاهدته شتى الفئات التي لم يعاصر معظمها وقت الحرب. لقد كانت هذه الأعداد الغفيرة تذهب إلى المجهول، أثناء مشاهدتها للفيلم، في مساء أحد أيام السبت، يوم راحتهم. وكانوا ينسون وقت مشاهدة الفيلم الحرب والتهديدات في الخارج، ويجلسون بالقرب من بعضهم، في ظلام قاعات السينما لمشاهدة فيض المشاهد على الشاشة، ولا شيء آخر غيرها. استطاعت نظرات المشاهدين، بواسطة إحدى العمليات الكيمائية، تعديل جوهر التصوير ذاته، والإضاءة، وأصوات الممثلين الكوميديين. هذا هو انطباعي، عند تذكري دورا برورديه وأنا أشاهد المشاهد التافهة لفيلم «اللقاء الأول».

أُلقي القبض على أرنست برورديه يوم 19 مارس 1942، أو بالأحرى تم إرساله في ذلك اليوم إلي معتقل درانسي. لم أعثر على أي أثر يمكِّنني من معرفة أسباب وظروف هذا الاعتقال. ذُكرت البيانات الآتية في البطاقة «العائلية» التي يستخدمها قسم الشرطة عند جمع بعض البيانات عن كل يهودي:

«أرنست برورديه

-21 -5 99 – فيينا

رقم ملف اليهودي: 49091

معاق حرب 100%. الفئة الثانية من الفيلق الفرنسي، مصاب بتسمم غاز- سُل رئوي.

سِجِل مركزي: و. 56404».

سجلت البطاقة أسفل هذه البيانات معلومة مختومة تفيد أنه «مطلوب»، ويليها ملحوظة «موجود في معتقل درانسي» مكتوبة بقلم رصاص.

كان من المحتمل إلقاء القبض على أرنست بروديه يوم 20 أغسطس 1941، باعتباره يهوديًّا «ونمساويًّا سابقًا» أثناء مداهمة رجال الشرطة الفرنسيين، المُعضَدين بجنود ألمان، وإغلاقهم الدائرة الحادية عشرة، واستجوابهم بعد ذلك بعدة أيام اليهود الأجانب في شوارع الدوائر الأخرى ومن بينها الدائرة الثامنة عشرة. كيف تمكن من الإفلات من هذه المداهمة؟ هل بفضل اللقب الذي يحمله كمجند سابق في فيلق فرنسي؟ أشك في ذلك.

أشارت بطاقته إلى أنه «مطلوب». لكن منذ متى؟ ولأي سبب بالضبط؟ فلو كان «مطلوبًا» يوم 27 ديسمبر 1941، اليوم الذي سجل فيه اختفاء دورا في مخفر حي كليونكور، لم يكن رجال الشرطة ليطلقوا سراحه. هل جذب الانتباه إليه في ذلك اليوم؟

إنه أب يحاول العثور على ابنته، ويسجل اختفاءها في المخفر، وينشر إعلانًا للبحث عنها في جريدة مسائية. لكن هذا الأب نفسه «مطلوب». لقد كان الآباء يفقدون أثر أبنائهم، فقد اختفى أحدهم بدوره يوم 19 مارس، كما لو أن شتاء ذلك العام كان يفرق بين الناس بعضهم بعضًا، ويشوش ويمحو خطاهم لدرجة تثير الريبة في وجودهم على قيد الحياة. لم يكن هناك ملاذ يمكن اللجوء إليه؛ فالمكلفون بالبحث عن شخص والعثور عليه كانوا يعدون الملصقات بطريقة تجعله يختفي نهائيًّا.

لا أعلم إن كانت دورا برورديه قد علمت بأمر أبيها فور إلقاء القبض عليه. أفترض أن هذا لم يحدث؛ لأنها في شهر مارس لم تعُد إلى 41 جادة أورنانو منذ هروبها في شهر ديسمبر. هذا على الأقل ما تشير إليه الدلائل القليلة الموجودة في سجلات قسم الشرطة.

اليوم، وبعد مرور ما يقرب من ستين عامًا، سوف تكشف هذه السجلات شيئًا فشيئًا عن خباياها؛ فمخفر شرطة الاحتلال لم يكن سوى ثكنة وهمية كائنة على بر نهر السين، إذ يمكننا تشبيهه إلى حد ما، في اللحظة التي نتذكر فيها الماضي، بمنزل آشر لإدجار بو. وإننا نجد مشقة اليوم في الاعتقاد بأن هذا المبنى، الذي كنا نسير بامتداد واجهته، لم يتغير منذ الأربعينيات، ونُقنع أنفسنا أن لبناته وممراته لم تعد على حالها.

توفي منذ أمد طويل مفوضو الشرطة والمفتشون

المساهمون في مطاردة اليهود، الذين كانت تتردد أسماؤهم كالصدى المدوي الحزين، وتتصاعد منهم رائحة الجلد العفن ودخان السجائر البارد أمثال: برميلو، وفرانسوا، وشيبلين، وكوربريش، وكوجول.. لقد أصبح رجال الأمن، الذين كنا نطلق عليهم «العملاء المخبرين» ويكتبون أسماءهم على محضر كل شخص من المقبوض عليهم أثناء المداهمات، في عداد الموتى أو المُقعَدين بسبب الشيخوخة. لقد أعدِمت عشرات الآلاف من المحاضر ولن نتمكن قط من معرفة أسماء أولئك «العملاء المخبرين». غير أن هناك المئات والمئات من المخاطبات المرسلة إلى قسم الشرطة في ذلك العصر ولم يُرسل ردٌّ عليها قط. لقد ظلت قابعة في مكانها لأكثر من نصف قرن، مثل أجولة البريد المنسية في أحد عنابر البريد الجوي البعيدة. لقد أصبح في مقدورنا اليوم قراءتها. لم تكن هذه المخاطبات في حسبان الأشخاص المرسلة إليهم، أما اليوم فسوف نقوم نحن، الذين لم نكن قد ولدنا بعد في ذلك العصر، بدور المرسل إليه ورجال الأمن:

«السيد رئيس الشرطة:

يشرفني جذب انتباهكم لطلبي هذا. يتعلق الأمر بابن أخي ألبير جرودنز، فرنسي الجنسية، ويبلغ ستة عشر عامًا، الذي احتجز ...».

«سيدي مدير مصلحة اليهود:

ألتمس من سيادتكم، وبفضل عطفكم الكبير، الإفراج عن ابنتي نيللي تروتمان من معتقل درانسي...».

«سيدي رئيس الشرطة:

اسمح لي أن أطلب من سيادتكم معروفًا من أجل زوجي، زيليك برجريشت، للاستدلال عن أخباره ومعلومات عنه...».

«سيدي رئيس الشرطة:

يشرفني أن التمس بفضل عطفكم الكبير وكرمكم، إفادتي عن أخبار ابنتي، مدام جاك ليفي، المولودة باسم فيوليت جويل، والمعتقلة تقريبا يوم 10 سبتمبر الماضي عندما كانت تحاول عبور الحد الفاصل بين الحدود دون حملها النجمة طبقًا للقانون. لقد كانت تصطحب ابنها، جون ليفي البالغ من العمر ثمانية أعوام ونصف...».

مرسل لرئيس الشرطة:

«ألتمس بفضل عطفكم إطلاق سراح حفيدي ميشيل روبين، 3 سنوات، فرنسي، من أم فرنسية، المحتجز في درانسي مع والدته...».

«سيدي رئيس الشرطة:

سوف أكون مدينًا لكم للغاية لو تفضلتم بفحص الحالة التي

سوف أعرضها عليكم: أبواي مسنَّان ومريضان، أُلقي القبض عليهما كيهود، ونحن نعيش بمفردنا مع أختنا الصغرى، ماري جوسمان خمسة عشر عامًا ونصف، وهي يهودية فرنسية، وتحمل بطاقة هوية فرنسية رقم 159436، مسلسل ب، وأنا أيضًا، جانيت جروسمان يهودية فرنسية، تسعة عشر عامًا، وأحمل بطاقة هوية فرنسية رقم 924247، مسلسل ب ...».

«سيدي المدير:

ألتمس من سيادتكم العذر لمخاطبتي لكم، لكن هذه هي حالتي: يوم 16 يوليو 1942، الساعة الرابعة صباحًا جاء البعض للبحث عن زوجي واصطحبوا ابنتي معهم لأنها كانت تبكي. اسمها بوليت جوثيلف، تبلغ أربعة عشر عامًا ونصف، من مواليد 19 نوفمبر 1927 في باريس، الدائرة الثانية عشرة، وهي فرنسية...».

وجدت هذه المعلومة مدونة بتاريخ 17 إبريل في سجل أحداث مخفر كليونكور، في الخانات المعتادة: التاريخ والجهة، - الحالة المدنية- ملخص الحالة.

«17 إبريل -1942 2098 15/24 - ر. القُصَّر - حالة دورا برودیه، السن ستة عشر عامًا - مختفية عقب محضر رقم -1917 العودة لمسكن الأهل».

لا أعرف المقصود من الأرقام 2098 و15/24. أما المصطلح المختصر «ر. قُصَّر» فهو يعني بالتأكيد «رعاية القُصَّر». لقد

اشتمل المحضر رقم 1917 دون شك على إفادة أرنست برورديه والأسئلة التي طُرِحت عليه يوم 27 ديسمبر 1941، المتعلقة بدورا وبشخصه. لا يوجد أي دليل آخر في سجلات الأرشيف بشأن هذا المحضر رقم 1917.

ذُكرت «حالة دورا برورديه»، بالكاد في ثلاثة أسطر. والبيانات التالية المدونة في سجل 17 إبريل كانت تخص «حالات» أخرى:

«جول جورجيت بوليت، 30/ 7 / 23، من مواليد بانتان، السين، الأبوان جورج وبيليز روز، عزباء، محل الإقامة فندق بشارع بيجال. دعارة».

«جرمان موريز، 9 / 10 / 21، مواليد بلدة أونتر دو زو (فودج). الإقامة فندق. تقرير واحد، ب. م. ج. ر. كريته. الدائرة التاسعة».

وهكذا توالت البلاغات في سجلات مخافر الاحتلال، عن العاهرات، والكلاب المفقودة، والأطفال اللقطاء. وكذلك البلاغات المتعلقة بالمراهقات المختفيات – مثل دورا– المتهمات بجنحة التشرد.

من الناحية الظاهرية، لم يتعلق الأمر قط «باليهود»، وبالرغم من هذا كانوا يُرسلون إلى تلك المخافر قبل ترحيلهم واحتجازهم في معتقل درانسي. والجملة القصيرة «العودة لمسكن الأهل» تدل على أن مركز شرطة حي كليونكور كان يعلم أن والد دورا ألقي القبض عليه قبل شهر من ذلك التاريخ.

اختفى أي أثر عن وجود دورا في الفترة بين 14 ديسمبر

1941 يوم هروبها، و17 إبريل 1942 اليوم الذي عادت فيه وفقًا للسجل إلى مسكن العائلة، أي غرفة الفندق رقم 41 بجادة أورنانو. خلال هذه الأشهر الأربعة، لم يُستدلَّ على مكان دورا، وسلوكها، والشخص الذي كانت بصحبته. ولا نعلم أيضًا الظروف التي دفعتها للعودة إلى «مسكن الأهل». هل كان بمبادرة شخصية منها، بعد علمها باعتقال والدها؟ أم ضُبِطت في الشارع بعد أن أصدرت فرقة القُصَّر أمرًا بالبحث عنها؟ لم أعثر على أي أثر يُستدل به حتى ذلك اليوم، أو شاهد يمكن أن يدلني عن تغيبها خلال تلك الأشهر الأربعة، التي سوف تظل بالنسبة لنا مرحلة ممحوة من حياتها.

الطريقة الوحيدة التي تُجنِّبنا فقدان دورا برروديه تمامًا، ربما تقتضي وصف التغيرات المناخية خلال تلك الفترة. تساقطت الثلوج للمرة الأولى يوم 4 نوفمبر 1941. بدأ فصل الشتاء يوم 22 ديسمبر ببرد شديد. في 29 ديسمبر استمرت درجات الحرارة في الانخفاض، وغطت طبقة خفيفة من الثلوج المربعات الزجاجية للنوافذ. أصبح البرد قارسًا بدءًا من 13 يناير. تجمدت المياه. استمر ذلك المناخ ما يقرب من أربعة أسابيع. سطعت الشمس قليلًا يوم 12 فبراير كما لو أنها تعلن في حياء بدء فصل الربيع. وطئت أقدام المارة الوحل بعد أن تحولت طبقة الثلج إلى طين يغطي الأرصفة. مساء يوم 12 فبراير قام رجال شرطة استجواب اليهود بترحيل أبي. في 22 فبراير، تساقطت الثلوج مرة أخرى وانهمرت أكثر يوم

25 فبراير. في 3 مارس، بعد الساعة التاسعة مساءً، تعرضت الضاحية لأول قصف لها. في باريس كانت ضلف الزجاج تهتز، وانطلقت صفارات الإنذار في وضح النهار يوم 13 مارس للتحذير من غارة. اضطر ركاب المترو للتوقف في أماكنهم لمدة ساعتين، ثم لجئوا إلى النفق. شُنَّتْ غارة أخرى في العاشرة مساءً. أشرقت الشمس اللطيفة يوم 15 مارس. يوم 28 مارس، استمر القصف البعيد من العاشرة مساءً حتى منتصف الليل. يوم 2 إبريل، شُنت غارة نحو الساعة الرابعة صباحًا، واستمر القصف العنيف حتى السادسة، وتجدد القصف بدءًا من الساعة الحادية عشرة مساءً. يوم 4 إبريل، بدأت براعم شجر الكستناء تنمو على الأفرع. مساء 5 إبريل، هبَّت عاصفة ربيعية باردة، ثم ظهرت ألوان قوس قزح. أُذَكِّر نفسي بموعد لقائي على رصيف مقهى جوبلان بعد ظهر الغد.

منذ بضعة أشهر استطعت الحصول على صورة لدورا بروديه، تختلف عن الصور التي كنت قد جمعتها قبل ذلك. لقد كانت دون شك آخر الصور التي التُقطت لها. اختلفت ملامح وجهها عن مرحلة الطفولة التي كانت عليها في الصور السابقة، وذلك من خلال نظراتها، وانتفاخ خديها، والثوب الأبيض الذي ترتديه يوم توزيع المكافآت.. لا أعرف تاريخ التقاط تلك الصورة. لقد كانت يقينًا عام 1941، العام الذي التحقت فيه دورا بداخلية قلب مريم المقدس، أو في بداية ربيع 1942 بعد عودتها من هروبها في ديسمبر إلى جادة أورنانو.

تظهر دورا في الصورة بصحبة والدتها وجدتها من الأم. تقف النسوة الثلاث جنبًا إلى جنب، وتتوسط الجدة سيسيل برورديه ودورا. ترتدي سيسيل برورديه ثوبًا أسود وشعرها قصير، وترتدي الجدة ثوبًا مزركشا بالورود، والاثنتان لا تبتسمان. تلبس دورا ثوبًا أسود – أو كحليًّا– وبلوزة بياقة بيضاء وقد يكون صديريًّا وتنورة؛ فالصورة غير واضحة للتأكد من ذلك، وترتدي جوربًا وحذاءً برباط. شعرها ينسدل حتى كتفيها وتزمُّه بمشد، وتفرد ذراعها اليسرى إلى جانب جسدها، وتطوي أصابع كف يدها اليسرى، وتختفي ذراعها اليمنى خلف جدتها. تقف رافعة الرأس، عيناها ثاقبتان، وتهُمُّ بابتسامة ترتسم على شفتيها؛ مما يضفي على وجهها بشاشة حزينة وتحديًا. النسوة الثلاث يقفن أمام الحائط. وبلاط الأرضية يماثل ممر أحد الأماكن العامة. من الذي تمكن من التقاط تلك الصورة؟ أرنست برورديه؟ وإذا كان لا يظهر في الصورة فهل هذا يعني أنه كان قد ألقي القبض عليه بالفعل؟ في كل الأحوال يبدو أن الثلاثة قد ارتدين ملابس يوم الأحد، من أجل هدف مجهول.

هل ترتدي دورا التنورة الكحلية المشار إليها في إعلان البحث عنها؟

إنها صور مثل صور العائلات الأخرى التي يحتمي بها أفرادها لبضع ثوانٍ، وتصبح بعد ذلك هذه الثواني مسألة أزلية.

إننا نتساءل لماذا ضربت الصاعقة تلك الأسرة دون غيرها.

لقد خطر في بالي فجأة أثناء كتابتي لهذه السطور، بعض من يمارسون مثلي مهنة التأليف؛ فتذكرت اليوم أحد الكتاب الألمان وكان يسمى فريدو لامب.

كان أول ما جذب انتباهي إليه اسمه وعنوان كتابه: «على مشارف الليل»، الذي تُرجم إلى الفرنسية منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا، وكنت قد اكتشفت نسخة منه في تلك الآونة في إحدى مكتبات الشانزليزيه. لم أكن أعرف شيئًا عن هذا الكاتب، ولكنني تنبأت بأسلوب الكتاب وأجواء أحداثه قبل أن أفتحه، كما لو أنني قرأته بالفعل في حياة أخرى.

يذكرني اسم فريدو لامب وعنوان «على مشارف الليل»، بالنوافذ المضاءة التي لا تتمكن من أن تكف عن النظر إليها، وتحدث نفسك بأن خلف هذه النوافذ هناك شخص ما لا تتذكره ينتظر عودتك منذ سنوات، أو أنه لا أحد هناك على الإطلاق باستثناء مصباح ظل مضاءً في الشقة الخالية.

فريدو لامب من مواليد مدينة برام 1899، عام ميلاد أرنست برورديه. التحق بجامعة هيدلبرج، واشتغل في هامبورج أمين مكتبة حيث بدأ هناك كتابة روايته الأولى «على مشارف الليل». ثم التحق بالعمل كموظف لدى أحد الناشرين في برلين. لم يكن يبالي بالسياسة، وركز اهتمامه على وصف الغروب الذي يهبط على ميناء برام، والضوءين الأبيض والأزرق المائل للحُمرة المنبعثين من المصابيح الكهربائية، والبحارة، والمصارعين،

والفرق الموسيقية، وجرس الترام، وجسر السكة الحديد، وصفارة الباخرة، وكل أولئك الأشخاص الذين يبحثون عن بعضهم في الليل... صدرت روايته في أكتوبر 1933 عندما كان هتلر لا يزال في السلطة. ثم سُحبت رواية «على مشارف الليل» من المكتبات العامة ودور الكتب، وأُتلفت وأصبح مؤلفها «مشتبهًا به». لم يكن حتى يهوديًّا، فما هي الأمور المنسوبة إليه؟ كانت بكل بساطة الطلاوة والشجن في كتابه. لقد كان طموحه الوحيد – وفقًا لما باح به في رسالة–»تحويل بعض الساعات إلى أوقات مؤثرة في المساء، بين الساعة الثامنة ومنتصف الليل، على جانبي الميناء. وتذكّر حي برام حيث أمضيت فترة شبابي، وتتابع بعض المشاهد القصيرة كما لو كانت في فيلم تتشابك فيه سِيَر الحياة. لقد كانت كل الأحداث سهلة وانسيابية، ومرتبطة بصورة واهية للغاية، وتصويرية، ووجدانية، وتدور في أجواء رحبة».

بعد انتهاء الحرب، وأثناء تقدم القوات السوفيتية، كان يعيش في ضاحية برلين. يوم 2 مايو 1945، أوقفه جنديان روسيان وطلبا منه أوراق إثبات الشخصية، ثم اقتاداه إلى حديقة وانقضَّا عليه دون أن يفكرا لوهلة في التمييز بين الطيبين والأشرار. تولى بعض جيرانه دفنه، في مكان أبعد قليلًا، تحت شجرة سندر، وأرسلوا إلى الشرطة ما تبقى منه: أوراقه وقبعته.

تذكرت أيضًا كاتبًا ألمانيًّا آخر يدعى فيليكس هارتلوب،

من مواليد 1913 بمنطقة ميناء برام، مثله مثل فريدو لامب. جُنِّد في باريس وقت الاحتلال والحرب، وكان زيه العسكري الأخضر الرمادي يثير الرعب في نفسه. لا أعلم الكثير عنه. لقد قرأت بالفرنسية في إحدى المجلات الصادرة في الخمسينيات جزءًا من مجلد له بعنوان» من أسفل إلى أعلى المنظر» كان قد كتبه وعهد به إلى أخته في يناير 1945. هذا الجزء كان بعنوان «ملاحظات وانطباعات»، وصف فيه مطعم أحد محطات قطار باريس والمترددين عليها، ومبنى وزارة الشئون الخارجية بمئات مكاتبه المهجورة التي يعلوها الغبار، بعد مغادرة الفرنسيين له واستخدامه لقضاء المصالح الألمانية، والثريات التي ظلت مضاءة، وبندول الساعات التي استمرت في الرنين دون توقف في سكون المكان. في المساء كان يرتدي الزى المدني لينسى الحرب ويندمج في شوارع باريس. ولقد وصف لنا إحدى جولاته الليلية التي كان يبدؤها بالصعود إلى المترو في محطة سولفرينو ويهبط في ترينيته، وسط الظلام في فصل الصيف، والحرارة المرتفعة. ثم يعود إلى شارع كايشي وسط الظلام الحالك، ويلاحظ وحيدًا وباستهزاء، وجود قبعة من بلدة تيرول فوق أريكة في بيت البغاء، والفتيات اللاتي يتسكعن في ركن آخر من البيت وكأنهن «منومات تحت تأثير البنج. لقد كان المكان بأثره يسبح في إضاءة غريبة كحوض نبات استوائي، يتَّقد زجاجه من شدة الحرارة». لقد كان يجلس في جزء آخر من المكان ويراقب من بعيد، كما لو أن عالم الحرب

هذا لا يعنيه. كان يهتم بأدق الملاحظات اليومية والأجواء، لكنه كان في الوقت نفسه منقطعًا عمَّا يدور حوله وغير مكترث به. لقد توفى مثل فريدو لامب في برلين في ربيع عام 1945، في الثانية والثلاثين من عمره، أثناء المعارك الأخيرة وسط عالم مليء بالمجازر والأحداث الفظيعة، عالم عايشه بطريق الخطأ بعد أن فرضوا عليه الزي العسكري الذي لم يكن ينتمي إليه.

لماذا يتجه تفكيري الآن نحو الشاعر روجر جيلبار لوكونت دون غيره من الأدباء الآخرين؟ لقد أصابته الصاعقة هو أيضًا في الفترة ذاتها للأديبين السابقين، كما لو أنه قُدِّر لبعض الأشخاص أن يكونوا دروعًا واقية من الصواعق لإنقاذ الآخرين.

لقد سلكت ذات يوم شارع روجر جيلبار لوكونت، وترددت في مثل عمره على أحيائه الجنوبية: جادة برون، شارع أليسيا، فندق بريمافيرا، شارع الطريق الأخضر... لقد عاش عام 1938 مع يهودية ألمانية اسمها روث كروننبرج، في حي بورت دورليون، ثم انتقلا معًا إلى مكان أبعد قليلًا، في حي بليزانس وأقاما في أتيلييه بشارع باردينيه بالمبنى رقم 16 مكرر. كم عدد المرات التي ترددت فيها علي هذه الشوارع دون أن أدرك أن جيلبار لوكونت سار فيها قبلي!.. عام 1965 كنت أتوجه إلى شارع كولانكور في الجهة اليمنى من مونمارتر، وأجلس بعد ظهر كل يوم في مقهى يقع في زاوية ميدان كولانكور، في غرفة بفندق رقم 42 – 99، نهاية ممر مونمارتر، وكنت أجهل

أن جيلبار لوكونت كان يقيم هناك قبلي بثلاثين عامًا.

في تلك الحقبة نفسها، قابلت طبيبًا يدعى جون بويوبير، إذ كنت أعتقد أنني أعاني من غشاوة على الرئة، وطلبت منه شهادة موقعة لإعفائي من الخدمة العسكرية. حدد لي ميعادًا في العيادة التي يعمل بها، بميدان أليراي، وأجرى لي أشعة أظهرت أني معافى. أردت أن يتم تسريحي من الجيش، بالرغم من أن تلك الفترة لم تكن فترة حرب. الأمر ببساطة هو أني لا أحتمل الحياة في ثكنة تماثل إقامتي في المدرسة الداخلية في الفترة بين سن الحادية عشرة والسابعة عشرة.

لا أعلم المصير الذي آل إليه الطبيب جون بويوبير؛ فقد مرت عشرات السنين منذ التقيته، ولقد علمت أنه كان أحد الأصدقاء المفضلين لروجر جيلبار لومونت الذي طلب منه في مثل عمري الخدمة التي سبق وطلبتها، أي شهادة طبية تثبت أنه يعاني من التهاب غشاء الرئة كي يتم تسريحه من الجيش.

روجر جيلبار لوكونت.. لقد عاش أيامه الأخيرة يتسكع في باريس خلال فترة الاحتلال. في يوليو 1942 أُلقي القبض على صديقته روث كوننبيرج في المنطقة الحرة أثناء عودتها من شاطئ كوليور، وغادرت مع ركب 11 سبتمبر، بعد أسبوع من ترحيل دورا برورديه. لقد كانت شابة من أصل بولندي، وصلت إلى باريس نحو عام 1945 في سن العشرين بسبب الأحكام العرفية. كانت تهوى المسرح والشعر، وتعلمت الحياكة لتفصيل

ملابس التمثيل المسرحي. قابلت فور وصولها، روجر جيلبار لوكونت ضمن مجموعة أخرى من الفنانين في مونبارناس.

استمر هذا الأخير في العيش بمفرده في الأتيلييه الكائن بشارع باردينيه. ثم استقبلته السيدة فيرما، التي تدير المقهى المواجه للأتيلييه، وتولت رعايته بعد أن أصبح كالظل. في خريف 1942 شرع في خوض بعض المغامرات المنهكة، مرورًا بالضاحية حتى بوا كولومب، بشارع أوبيبين للحصول من بعض الأطباء في منطقة بريفوا على وصفات طبية تُمكِّنه من الحصول على بعض الهيروين. لكنه لفت الأنظار إليه في رحلات الذهاب والإياب، وأُلقي القبض عليه وأودع مصحة السجن يوم 21 أكتوبر 1942، ومكث في العيادة حتى 19 نوفمبر ثم أُطلق سراحه مع التعهد بالمثول الشهر التالي أمام محكمة الجنح لأنه «اشترى وحاز بالمخالفة للقانون ودون أسباب شرعية من باريس، وبوا كولومب، وآسينار عام 1942، مخدرات وهيروين ومورفين وكوكايين...».

في بداية عام 1943، مكث بعض الوقت في عيادة ببلدة أبيناي، ثم آوته السيدة فيرما في غرفة تحت المقهى. وتركت له الطالبة، التي استضافها في الأتيلييه الكائن بشارع باردينيه فترة تكليفها بإحدى العيادات، علبة أمبولات مورفين كان يستخدمها قطرة فقطرة. لم أتعرف على اسم تلك الطالبة.

توفي في سن السادسة والثلاثين بعد إصابته بالتيتانوس

يوم 31 ديسمبر 1943، في مستشفى بروسيه. ترك ديواني شعر نشرهما قبل بضع سنوات من الحرب، أحدهما بعنوان «الحياة، الحب، الموت، الفراغ والرياح».

اختفى الكثير من الأصدقاء الذين لم أعرفهم سنة 1945، عام مولدي.

في الشقة الكائنة بالمبنى رقم 15 شارع كونتي حيث كان يسكن أبي عام -1942 وهي الشقة ذاتها التي استأجرها موريس ساش العام السابق– كانت غرفتي إحدى الغرفتين المطلتين على الفناء. يقول موريس ساش إنه استضاف في هاتين الغرفتين شخصًا يدعى ألبير، يحمل لقب «الدرباني». كان هذا الأخير يستقبل «زمرة مكونة من شباب التمثيل الكوميدي المتطلعين لإنشاء فرقة مسرحية، ومجموعة من اليافعين في بداية حياتهم الأدبية». هذا المدعو «درباني» كان يحمل اسم أبي الأول وينتمي هو الآخر إلى عائلة يهودية إيطالية من مدينة سالونيك. بعد مرور ثلاثين عامًا، نشر مثلي في سن الحادية والعشرين، روايته الأولى بدار نشر جاليمار عام 1938، باسم فرانسوا فرنيه المستعار. ثم انضم إلى المقاومة واعتقله الألمان. كتب على جدران الزنزانة رقم 218 بالتقسيم الثاني بمدينة فيرن: «اعتُقِل الدرباني في 10/2/44. خَضَعت لنظام صارم لمدة ثلاثة أشهر. امتدت فترة استجوابي من 9 إلى 28 مايو. ذهبت للكشف الطبي يوم 8 يونيو، بعد يومين من إنزال الحلفاء».

رحل من معتقل كومبيان مع قافلة 2 يوليو 1944، ومات في معتقل داخاو في شهر مارس 1945.

وهكذا، نجد أن غرفة طفولتي بالشقة التي كان يقطنها ساش قبلنا ويمارس فيها الاتجار بالذهب، واختبأ فيها أبي من بعده بهوية مزورة، أقام بها أيضًا «الدرباني». كما نجد أن هناك آخرين مثله عانوا كثيرًا من المشقات قبل ولادتي مباشرة، كي لا نشعر نحن إلا بقدر ضئيل من الأحزان. لقد أدركت ذلك عندما بلغت الثامنة عشرة من عمري، طوال المسافة التي قضيتها مع أبي في سيارة الترحيلات، تلك المسافة التي لم تكن سوى تكرار غير عدائي، ومحاكاة ساخرة لمسافات أخرى قطعها غيرنا في السيارات عينها التي كانت تتجه إلى أقسام الشرطة ذاتها، غير أن عودتهم لم تكن سيرًا على الأقدام كما فعلت أنا ذلك اليوم.

عصر يوم 31 ديسمبر، وبعد هبوط الليل مبكرًا مثل اليوم، كنت أبلغ الثالثة والعشرين، وأتذكر أنني ذهبت لزيارة الطبيب فيرديار، الذي كان يعاملني بلطف كبير في فترة كنت أعاني فيها من الضيق والتردد. كنت أعلم بطريقة غامضة، أنه أدخل أنتوان آرتو إلى مستشفى الأمراض النفسية بمدينة روديز، وحاول إخضاعه للعلاج. غير أن ذلك المساء، تصادف مع ظهور كتابي الأول، فأعطيته نسخة منه، فأبدى دهشته من العنوان «ميدان النجمة». ثم ذهب ليبحث في مكتبته، وأطلعني على كتاب صغير الحجم رمادي اللون يحمل العنوان ذاته «ميدان

النجمة» لصديقه الكاتب روبرت دينوس. كان الطبيب فيرديار هو الذي تولى نشر ذلك الكتاب في روديز عام 1945، بعد أشهر قليلة من وفاة دينوس بمعتقل تريزين، أي عام مولدي. كنت أجهل أن دينوس ألف كتاب «ميدان النجمة»، ويبدو أنني بصورة لا إرادية سرقت العنوان ذاته.

عثر أحد الأصدقاء منذ شهرين، في سجلات معهد ييفو بنيويورك، على الوثيقة الآتية بين وثائق أخرى للاتحاد العام السابق ليهود فرنسا، الهيئة التي أنشئت أثناء الاحتلال:

«3 ل/ س ب ل/ 17 يونيو 1942
0032

إخطار للآنسة سالومون

أسفرت اهتمامات مخفر شرطة كليونكور عن إعادة دورا برودیه لوالدتها يوم 15 الجاري.

تجدر الإشارة إلى أنها بحاجة لإلحاقها بإحدى دور إعادة تأهيل الأبناء، نظرًا لهروبها المتكرر.

وبالنظر لاحتجاز الوالد، وحالة الفقر التي تعاني منها الأم، فإن الشئون الاجتماعية التابعة لشرطة (مرفأ جسفر) على استعداد لاتخاذ اللازم إذا ما طُلب منها ذلك».

وهكذا، نجد أن دورا برودیه عاودت كرَّة هروبها، بعد إعادتها لمنزل العائلة يوم 17 إبريل 1942. لن نتمكن من تحديد مدة

هروبها. هل كانت شهرًا، أم شهرًا ونصفًا من ربيع 1942؟ أم أسبوعًا؟ وأين ألقي القبض عليها لإرسالها لمخفر شرطة حي كليونكور، وما هي الملابسات التي استدعت ذلك؟

أُرغِم اليهود منذ 7 يونيو على ارتداء النجمة الصفراء. وبدأ الأشخاص الذين تبدأ أسماؤهم بحرفي الألف والباء الذهاب إلى مخافر الشرطة يوم 2 يونيو للحصول على النجوم والتوقيع في السجلات المفتوحة لهذا الغرض. هل كانت دورا تحمل النجمة الصفراء لحظة اعتقالها؟ أشك في ذلك، خاصة بعد أن أتذكر ما أخبرتني به ابنة خالها من أنها كانت ذات طبيعة متمردة واستقلالية. ثم إن هناك احتمالات كثيرة لهروبها قبل بداية شهر يونيو.

هل ضُبِطت في الشارع لأنها لم تكن ترتدي النجمة؟ عثرت على منشور يوم 6 يونيو 1942، يحدد مصير المخالفين للمرسوم الثامن الخاص بارتداء الشارة:

«مدير الشرطة القضائية ومدير الشرطة المحلية:

إلى السادة مفوضي التقسيمات، ومفوضي المرفق العام بالدوائر، ومفوضي أحياء باريس، ومفوضي الإدارات الشُّرَطية الأخرى المحلية والقضائية (والجهات ذات الصلة: إدارة البيانات العامة، وإدارة الخدمات التقنية، وإدارة الأجانب وشئون اليهود...).

الإجراء:

1) **اليهود البالغ أعمارهم 18 عامًا وما فوقها:**

- سوف تتكفل شرطة المرفق العام عند ضبطها أي يهودي مخالف، بإيداعه السجن مصحوبًا بأمر ترحيل خاص وشخصي يحرر من نسختين (ترسل صورته للسيد روكس، مفوض التقسيم، ورئيس الشركات المنوطة بالمنشورات- قسم الإيداع). ينص هذا المستند على مكان ويوم وساعة ضبط المحبوس إداريًّا، بالإضافة لملابسات توقيفه، واسمه واسم الأب، ومكان وتاريخ ميلاده، وحالته العائلية، ومهنته، ومقر إقامته، وجنسيته.

2) **القُصَّر من الجنسين من سن 16 إلى 18 والنساء اليهوديات:**

- سوف تتكفل أيضًا شرطة المرفق العام بإيداعهم السجن وفقًا للأحكام المنصوص عليها أعلاه.

سوف تتولى الإدارة الدائمة للسجن إرسال النسخ الأصلية من أوامر الترحيل إلى إدارة الأجانب وشئون اليهود، للبتّ في أمرهم، بعد إبلاغ السلطة الألمانية. لن يُطلق سراح أي محتجز إلا بأمر كتابي من الإدارتين الآتيتين:

إدارة الشرطة القضائية، السيد طانجي

إدارة الشرطة المحلية، السيد هينيكان».

في شهر يونيو هذا، أُلقي القبض على مئات المراهقين في الشارع مثل دورا، وفقًا للتعليمات المحددة والتفصيلية للسيدين طانجي وهينيكان. كان المقبوض عليهم يُرسلون إلى الحجز، ثم درانسي قبل ترحيلهم إلى أوشفيتز. لقد أُعدِمت بالتأكيد «أوامر الترحيل الخاصة والشخصية»، التي كانت تُرسل صورتها إلى السيد روكس، بعد الحرب، أو بالتتابع بعد عمليات الضبط. غير أن بعضها لا يزال موجودًا، وربما يكون ذلك بسبب عدم الاكتراث:

«تقرير 25 أغسطس 1942

نظرًا لعدم وضع شارة اليهودي، أضع في الحجز كلًّا من:

أستر ستيرمان، من مواليد باريس، 13 يونيو 1926، الدائرة الثانية عشرة، 42 شارع فران بورجوا - الدائرة الرابعة.

بنيامين روزتين، من مواليد وارسو، 19 ديسمبر 1922، 5 شارع فرانبورجوا. اعتقل الاثنين مفتشو القسم الثالث للبيانات العامة، في محطة قطار أوسترليتز».

«تقرير شرطة بتاريخ الأول من سبتمبر 1942:

مرسل من المفتشين كورينييه ولاسال، إلى المفوض الأساسي، رئيس الفرقة الخاصة.

نضع تحت تصرفكم المدعوة لويز جاكوبسون، من مواليد

باريس في الرابع من ديسمبر عام تسعمائة أربعة وعشرين بعد الألف، الدائرة الثانية عشرة (...) تجنست منذ عام تسعمائة وخمسة وعشرين بعد الألف، بالجنسية الفرنسية، من أصل يهودي، عزباء.

تقيم عند والدتها، 8 شارع دي بوليه، الدائرة الحادية عشرة، طالبة.

ضُبِطت هذا اليوم نحو الساعة الثانية بعد الظهر، في منزل والدتها في الظروف الآتية:

أثناء تفقُّدنا مكان الإقامة المشار إليه، لاحظنا أن الشابة جاكوبسون لا تضع شارة اليهود عند عودتها إلى المنزل، وفقًا للتعليمات الصادرة في المرسوم الألماني.

أخبرتنا أنها غادرت منزلها الساعة الثامنة والنصف، وذهبت لحضور حصة تحضيرية للحصول على شهادة إتمام الدراسة الثانوية في مدرسة هنري الرابع الثانوية، شارع كلوفيس.

من جهة أخرى، أخبرنا بعض الجيران أن تلك الشابة تغادر منزلها كثيرًا دون وضع الشارة.

لا تشتمل سجلات إدارتنا، وكذلك السجلات القضائية على بيانات الآنسة جاكوبسون».

«يوم 17 مايو 1944، وأثناء جولة أمس الساعة 10.45، ضبط رَجُلا أمن في الدائرة الثامنة عشرة، اليهوديَّ الفرنسي

بارمان جول، من مواليد باريس 25 مارس 1925، الدائرة العاشرة، المقيم بالمبنى رقم 40 مكرر شارع رويسو، الدائرة الثامنة عشرة. بعد استجواب رجلي الأمن له، هرب لأنه لم يكن يضع النجمة الصفراء، فأطلق الرجلان ثلاث طلقات في اتجاهه دون إصابته، ثم ألقوا القبض عليه في الدور الثامن بالمبنى رقم 12 شارع نوديبه، الدائرة الثامنة عشرة حيث كان يختبئ».

وفقًا «للإخطار الموجه للآنسة سالومون»، فإن دورا برونديه أُعيدت لأمِّها، بغضِّ النظر عن ارتدائها أو عدم ارتدائها النجمة. أما أمُّها فقد كانت تضع النجمة بالفعل منذ أسبوع. الأمر الذي يعني أنه في هذا اليوم، لم يفرق مخفر كليونكور بين دورا وأية فتاة أخرى هاربة، إلا إذا كان رجال الشرطة أنفسهم هم الذين كتبوا «الإخطار الموجه للآنسة سالومون».

لم أجد أثرًا لتلك الآنسة. هل ما زالت على قيد الحياة؟ لقد كانت تعمل بالاتحاد العام لليهوديات الفرنسيات، وهي هيئة ترأسها يهوديات فرنسيات مرموقات تولين تقديم المساعدات، أثناء فترة الاحتلال، للجالية اليهودية. لعب ذلك الاتحاد دورًا في مساعدة عدد كبير من الأفراد، غير أن مصدره كان مبهمًا، لأنه أُنشئ بمبادرة من الألمان ومن فيشي. فقد اعتقد الألمان أن إشرافهم على تلك الهيئة، قد يمكِّنهم من تحقيق أهدافهم، وهو الوضع المماثل تمامًا للمجالس اليهودية التي أنشئوها في المدن البولندية.

كانت السيدات المرموقات وموظفو الاتحاد، يضعون بطاقة «تعريف قانونية» تجعلهم بمنأى عن المداهمات والاحتجازات. غير أنه سرعان ما أصبح هذا الامتياز أمرًا وهميًّا. ففي عام 1943، بدأت عمليات ضبط وترحيل مئات من مسئولي وموظفي الاتحاد. وقد عثرت ضمن قائمة المحتجزين على إحدى العاملات بالمنطقة الحرة، تسمى أليس سالومون. لكنني أشك في أن تكون سالومون المعنية بالإخطار الخاص بدورا.

من كتب هذا الإخطار؟ موظف من الاتحاد. هذا يعني احتمال معرفة الاتحاد منذ فترة بوجود دورا برودیه ووالديها. من المحتمل أيضًا أن تكون سيسيل برودیه والدة دورا، قد طلبت العون من هذه الهيئة، بعد إصابتها باليأس مثل معظم اليهود الذين كانوا يعيشون في فقر مدقع، ولم يكن لهم من ملجأ سوى الاتحاد. ربما كانت أيضًا تلك هي الوسيلة الوحيدة التي كانت تمكِّنها من معرفة أخبار زوجها، المحتجز في معتقل درانسي منذ شهر مارس، وتوصيل بعض الطرود له، أو أنها تستطيع العثور على ابنتها بفضل مساعدة الاتحاد.

كانت مقرات المساعدات الاجتماعية التابعة لشرطة (مرفأ جيفرس)،على استعداد لتقديم المساعدة اللازمة إذا طُلب منها ذلك. بلغ عدد تلك المقرات عشرين مقرًّا وكانت تتبع عام 1942، فرقة رعاية القُصَّر التابعة للشرطة القضائية، وكانت قسمًا مستقلًّا ترأسها معاونة من الشرطة الأساسية.

عثرت على صورة لاثنتين منهما في سن الخامسة والعشرين تقريبًا، التُقِطت في تلك الحقبة. كانتا ترتديان معطفًا أسود - أو ربما كحليًّا- وتضعان على رأسيهما قبعة شرطة مزينة بشعار يحمل حرفي القاف والشين، اختزالًا لقسم الشرطة. الواقفة على اليسار كانت سمراء، ينسدل شعرها حتى كتفيها تقريبًا، وتحمل حقيبة يد. الواقفة على اليمين، تبدو وكأنها تضع أحمر شفاه. على الحائط خلف السمراء توجد لوحتان معدنيتان مكتوب عليهما «معاونات الشرطة»، وأسفلهما يوجد سهم. أسفل السهم توجد لوحة مكتوب عليها: «الدوام من 9.30 حتى 12». يختفي النصف السفلي من تعليمات اللوحة خلف رأس وقبعة السمراء، لكننا نستطيع أن نقرأ:

قسم...

المفتشون

وفي الأسفل سهم يشير إلى «ممر على يمين باب...»

لن نتمكن قط من معرفة رقم هذا الباب.

أتساءل عن مصير دورا في الفترة بين 15 يونيو يوم تواجدها في مخفر كليونكور، و17 يونيو يوم الإخطار الموجه للآنسة سالومون. هل أفرجوا عنها وخرجت بصحبة أمها من المخفر؟

لو كان في مقدورها مغادرة مركز الشرطة والعودة بصحبة

أمها لفندق شارع أورنانو – شديد القرب من المخفر، إذ لم يتحملا سوى مشقة عبور شارع هيرمل- فإن ذلك يعني أن البحث عنها بدأ بعد ثلاثة أيام من اتصال الآنسة سالومون بالمساعدات الاجتماعية الشُّرَطِية التابعة لمرفأ جيفرس، الكائنة بالمبنى رقم 12 حيث مقر إدارة رعاية الطفولة.

غير أن لديَّ انطباعًا بأن الأمور لم تكن بهذه السهولة. لقد سلكت عدة مرات شارع هيرمل وسرت في الاتجاهين، اتجاه هضبة مونمارتر واتجاه جادة أورنانو. أغمضت عيني وتخيلت دورا وأمها يجتازان هذا الشارع سيرًا حتى غرفة الفندق، عصر يوم مشمس من شهر يونيو، كما لو كان يومًا عاديًّا.

أعتقد أن مشاجرة وقعت يوم 15 يونيو في مخفر حي كليونكور، وكانت خارج إرادة كل من دورا وأمها. إذ إن الأبناء يشعرون دائمًا بأمور تفوق مقتضيات الأهل، ويتخذون موقفًا أكثر عنفًا لمواجهة عداء ذويهم، ولا يكترثون لأمرهم، والأهل بدورهم يعجزون عن حمايتهم.

كانت سيسيل برورديه تعاني من جرَّاء ما تواجهه: رجال الشرطة، والآنسة سالومون، والمساعدات الاجتماعية الشُّرَطِية، والتعليمات الألمانية، والقوانين الفرنسية، والنجمة الصفراء التي ترتديها، وزوجها المحتجز في معتقل درانسي، و«حالة الفقر» التي تعيشها. لقد أصبحت في حيرة من أمرها تجاه تمرد دورا، وأرادت عدة مرات تمزيق الأواصر التي تربط دورا بأهلها.

«نظرًا لهروبها المتكرر، صدرت التوصية على ما يبدو بإيداعها إحدى دور إعادة تأهيل الأبناء».

ربما نُقِلت دورا من مخفر كليونكور إلى حجز قسم الشرطة، كما جرت العادة.

لقد أَلَمَّت إذن بالقاعة الفسيحة ونافذتها، والزنزانات، والفراش الذي تنام عليه مختلف السجينات اليهوديات، والعاهرات، ومخالفات «القانون العام»، و«السياسيات». واختبرت البق، والرائحة المنفرة، والحارسات، وذوات الزي الأسود وغطاء الرأس الأزرق القصير اللواتي لا نتوقع منهن أية رحمة.

أو نُقِلت مباشرة إلى مرفأ جيفرس، أثناء دوام 9،30 – 12، فاجتازت الممر على اليمين، وصولًا للباب الذي لن أتمكن قط من معرفة رقمه.

في كل الأحوال، لقد اضطرت يوم 19 يونيو 1942 إلى ركوب سيارة المساجين مع خمس فتيات أخريات في مثل عمرها – إلا في حالة عدم اصطحابهن أثناء جولة المرور على المخافر– لإيداعهن مركز احتجاز توريل، جادة مورتييه، بورت ليلاس.

امتلك معتقل توريل عام 1942 سجلًّا مكتوبًا على غلافه: النساء، ويضم أسماء المحتجزات بعد وصولهن تباعًا، وكان مخصصًا للنساء المقبوض عليهن في عمليات مقاومة، والشيوعيات. وكان يشتمل أيضًا حتى أغسطس 1942، على

أسماء اليهوديات المخالفات للتعليمات الألمانية الصادرة التي كانت تنص على الامتناع عن الخروج بعد الساعة الثامنة، وارتداء النجمة، وعدم عبور الخط الفاصل للوصول إلى المنطقة الحرة، واستعمال هاتف، وتملك عجلة، وجهاز اتصالات لاسلكية...

بتاريخ 19 يونيو 1942، يمكننا أن نقرأ في ذلك السجل ما يأتي:

«الدخول يوم 19 يونيو 1942

439– 42/6/19. الخامسة. دورا برودیه 25/2/26. باريس. الثانية عشرة. فرنسية. 41 جادة أورنانو. ي. معتقل درانسي 13/ 8/ 42.

والأسماء التي تتبع اسم دورا، تشمل الفتيات الخمس الأخريات اللاتي يبلغن عمر دورا:

1) «440 - 42/6/19. الخامسة. كلودين وينربيت 24/11/26. باريس. التاسعة. فرنسية. 82 شارع دي موان. ي. معتقل درانسي 42/8/13.

2) 19/ 6/42. الخامسة. زيلي سترولیتز 4/ 2/ 26. باريس. الحادية عشرة . فرنسية. 48 شارع موليير. مونتروي. ي. معتقل درانسي 42/8/13.

3) 42/6/19. راكا إسرالويكز. 1924/7/19. لودز. إن. 26 شارع (غير واضح). تسليم السلطات الألمانية، قافلة 19/7/42.

4) مارت ناشمانويكز. 25/3/23. باريس. فرنسية. 258 شارع ماركاديت. ي. معتقل درانسي 42/8/13.

5) 42/6/19. الخامسة. إيفون بيتون 25/1/27. جزائرية فرنسية. 3 شارع مارسيل سيمبات. ي. معتقل درانسي 42/8/13».

سجلت الحارسات كل واحدة منهن برقم قيد خاص بها، فحصلت دورا على رقم 439. ولا أعلم المقصود برقم «الخامسة». أما حرف «الياء»، فهو يعني يهودية. وأضيف تاريخ 13/8/42 لكل اسم من الأسماء: الأمر الذي يعني أن الثلاثمائة امرأة يهودية احتُجِزن في توريل ثم نُقِلن إلى معتقل درانسي.

يوم الجمعة 19 يونيو، اليوم الذي وصلت فيه دورا إلى توريل، صدرت الأوامر بتجميع النساء في فناء الثكنة بعد وجبة الغداء، بحضور ثلاثة ضباط ألمان أصدروا تعليماتهم لليهوديات من سن الثامنة عشرة حتى الثانية والأربعين بالوقوف في طابور مع إدارة ظهورهن. وبدأ أحد الضباط الثلاثة ينادي عليهن تباعًا وفقًا لقائمة الأسماء الكاملة التي كانت معه. وصعدت الأخريات إلى مخادع الثكنة. أما الست وستون سيدة المنفصلات عن زميلاتهن، فقد احتُجِزن في قاعة تخلو من سرير أو مقعد واستمر عزلهن لمدة ثلاثة أيام، مع تناوب حراسة الجنود للباب.

يوم الاثنين 22 يونيو، الساعة الخامسة صباحًا، وصلت بعض الحافلات لنقلهن إلى معتقل درانسي. وفي اليوم ذاته استُبعِدن خارج البلاد ضمن قافلة تضم أكثر من تسعمائة فرد. لقد كانت تلك هي القافلة الأولى التي تُقل نسوةً عند مغادرتها فرنسا. لقد أدركت يهوديات توريل معنى كلمة تهديد، التي كانت تخيم على الموقف دون التمكن من توصيفها، وصارت نسيًا منسيًّا مع مرور الوقت. عاشت دورا، خلال أيام احتجازها الثلاثة، في هذه الظروف القهرية؛ فقد شاهدت وبقية زميلاتها المحتجزات عبر النوافذ المغلقة، رحيل الست وستين سيدة صباح يوم الاثنين وقبل انبلاج الفجر.

أصدر أحد مسئولي الشرطة يوم 18 يونيو أو أثناء نهار 19 يونيو، أمرًا بترحيل دورا إلى معتقل توريل. هل اتُّخِذ ذلك الإجراء في مخفر حي كليونكور أم في مبنى رعاية الأطفال رقم 15 بمرفأ جيفرس؟ لقد كان أمر الترحيل يُحرَّر من نسختين تُسلَّم لحراس حافلات السجن. هل أيقن هذا المسئول أبعاد تصرفه هذا؟ حقيقة الأمر، لم يكن يكترث إلا بالتوقيع بصورة روتينية، وبمعرفة المكان الذي أُرسلت إليه تلك الفتاة، الذي أطلق عليه قسم الشرطة «مركز استضافة وإيواء خاضع للمراقبة» كتسمية مطمئنة.

لقد استطعت التعرف على بعض النسوة اللاتي استُبعِدن يوم الاثنين 22 يونيو الساعة الخامسة صباحًا، اللواتي التقت

بهن دورا عند وصولها توريل يوم الخميس.

كلوديت بلوش، اثنان وعشرون عامًا. ألقي القبض عليها أثناء توجهها لمقر الجستابو، شارع فلوش، لمعرفة أخبار عن زوجها المقبوض عليه في ديسمبر 1941. كانت إحدى السيدات القليلات الباقيات على قيد الحياة من القافلة.

جوزيت دوليمال، واحد وعشرون عامًا. قابلتها كلوديت بلوش في حجز قسم الشرطة قبل احتجاز الاثنتين معًا في اليوم ذاته في توريل. وفقًا لأقوال كلوديت، «عاشت جوزيت دوليمال حياة قاسية قبل الحرب، وكانت تفتقد حرارة الذكريات السعيدة. كانت منهارة للغاية. حاولت جاهدة طمأنتها (...) عند اقتيادنا إلى المخدع حيث خصصوا لنا سريرًا واحدًا، وطلبت منها بإصرار عدم الافتراق عن بعضنا، ولم نفترق حتى وصلنا أوشفيتز ووفاتها هناك بالحمى الصفراء». هذا كل ما استطعت معرفته عن جوزيت دوليمال، وكنت أود معرفة المزيد عنها.

تمارا إيسيرليس، أربعة وعشرون عامًا. طالبة طب. أُلقي القبض عليها في مترو كلوني «لوضعها العلم الفرنسي تحت نجمة داود اليهودية». أوضحت بطاقة هويتها التي عُثر عليها أنها كانت تقيم في 10 شارع بوزنفال في سانت كلو. بيضاوية الوجه، شعر أشقر كستنائي، وعينان سوداوان.

إيدا ليفين، تسعة وعشرون عامًا. لا تزال هناك بعض الخطابات التي كتبتها لعائلتها خلال فترة وجودها في الحجز

ومعتقل توريل. كتبت في خطابها الأخير، الذي ألقته من القطار في محطة بار لو دوك والتقطه بعض عمال السكة الحديد، قائلة:» أنا في طريقي إلى وجهة مجهولة، غير أن القطار الذي أكتب لكم وأنا بداخله يتجه نحو الشرق، ربما نذهب بعيدًا جدًّا...».

حِنَّة، وأنا أذكُرها هنا باسمها الأول، تسعة عشر عامًا. ألقي القبض عليها للسطو على شقة هي وصديقها وسرقة مائة وخمسين ألف فرنك من عملة ذلك الزمان وبعض المجوهرات. ربما كانت تحلم بمغادرة فرنسا ومعها هذا المبلغ للإفلات من المخاطر التي كانت تهدد حياتها. مثلت أمام محكمة الجنح، التي أصدرت حكمًا بإيداعها توريل وليس سجنًا عاديًّا، لأنها كانت يهودية. أشعر أنني متضامن مع سطوها هذا. ففي عام 1942 قام أبي كذلك مع بعض المتآمرين بنهب مستودعات إحدى شركات تصنيع رولمان البلي، بشارع جراند أرميه، وقام بتحميل البضاعة في شاحنات لجلبها إلى مخازنهم بالسوق السوداء، شارع هوش. وفقًا للتعليمات الألمانية، وقوانين فيشي، ومقالات الصحف، أصبح هؤلاء الأشخاص مخالفين للقانون العام، ويجب وقف التعامل معهم؛ فكان من الطبيعي أن يتصرفوا كخارجين على القانون للبقاء على قيد الحياة. وهذا شرف لهم، وسبب حبي لهم.

لم أعرف عن حِنَّة سوى القليل الذي لا يرقي إلى شيء يُذكر.

فقد ولدت يوم 11 ديسمبر 1922، في مدينة بروسكو ببولندا، وتقيم في 142 شارع أوبركامف، الشارع الذي سلكت منحدره مرارًا.

آنت زيلمان، واحد وعشرون عامًا، شقراء. تقيم في 58 جادة ستراسبورج. تعيش مع شاب اسمه جون جوسيون. ابنة أستاذ طب. نشرت أولى قصائدها الشعرية في مجلة «ليريفربار» السريالية، التي أسستها مع بعض أصدقائها قبل الحرب بفترة قصيرة.

عام 1942، شُوهِد الاثنان معًا، آنت زيلمان وجون جوسيون، في مقهى فلور عدة مرات. ثم لجئا معًا لبعض الوقت إلى المنطقة الحرة، حتى أصابهما سوء الحظ نتيجة بضع كلمات كتبها أحد ضباط الجستابو في خطاب له قائلًا:

«21 مايو: يتعلق الأمر بزواج غير اليهود من اليهود.

نما إلى علمي أن جون جوسيون المواطن الفرنسي (من أصل آري)، طالب يدرس الفلسفة، 24 سنة، مقيم في باريس، يعتزم الزواج خلال عيد الخمسين اليهودي من اليهودية آنا مالكا زيلمان، من مواليد 6 أكتوبر 1926 في نانسي.

أرادا والدا جوسيون منع هذا الزواج بشتى السبل، ولكنهما لم يتمكنا من ذلك.

وعليه، أُصدر أوامري بالقبض على اليهودية زيلمان، كإجراء

وقائي، واحتجازها في معتقل ثكنة توريل...».

كان هناك أيضًا ملصق للشرطة الفرنسية فحواه:

«آنت زيلمان، يهودية، من مواليد نانسي 6 أكتوبر 1926، فرنسية. ألقي القبض عليها يوم 23 مايو 1942. احتُجزت في قسم الشرطة من 23 مايو حتى 10 يونيو، أُرسلت إلى معتقل توريل في الفترة من 10 إلى 21 يونيو، واستُبعِدت خارج البلاد إلى ألمانيا يوم 22 يونيو. أُلقي القبض عليها بسبب مشروع زواجها من الآري جون جوسيون. أقرَّ المقبلان على الزواج كتابةً، بعدولهما عن هذا الارتباط استجابة لرغبة الطبيب جوسيون الذي كان يأمل منع هذا الارتباط وإعادة الشابة زيلمان إلى عائلتها، دون التعرض لها إطلاقًا».

غير أن هذا الطبيب الذي لجأ إلى وسائل ردع غريبة، كان ساذجًا؛ لأن الشرطة لم تُسلم آنت زيلمان لعائلتها.

سافر جون جوسيون كمراسل حرب في خريف 1944. وعثرتُ في إحدى جرائد 11 نوفمبر 1944 على الإعلان الآتي:

«إعلان بحث. يعبر زملاء المهنة «المراسلون المستقلون» عن امتنانهم لكل من يدلي بمعلومات عن اختفاء أحد مراسليهم، ويدعى جوسيون، المولود في تولوز 12 أغسطس 1917، والمقيم في 21 شارع تيودور دي بونفيل، باريس. سافر يوم 6 سبتمبر كمحقق صحفي «حر» مع عضوي المقاومة السابقين، لي كونت حديثي العهد بالزواج، في سيارة ستروين 11، سوداء،

جهاز نقل سرعات أمامي، لوحة رقم ر. ن. 6283، تضع في الخلف لوحة معدنية بيضاء مكتوبًا عليها: «مهنة مستقلة».

قيل لي إن جون جوسيون اقتحم بسيارته مستعمرة ألمانية، فأطلقوا عليه الرشاشات قبل منع تقدمه ولقي حتفه، وهو المصير الذي جاء سعيًا إليه.

في العام التالي لوفاته، عام 1945، صدر كتاب لجون جوسيون بعنوان «رجل يمشي في المدينة».

منذ عامين وجدت بالصدفة البحتة في مكتبة ساحة إحدى المحطات، الخطاب الأخير لرجل رحل مع قافلة 22 يونيو مع كلوديت بلوش، وجوزيت دوليمال، وتمارا إيسيرليس، وحِنَة وآنت صديقة جون جوسيون...

الخطاب كان معروضًا للبيع مثل أي مخطوط أصلي، الأمر الذي يعني اختفاء المرسَل إليه هذا الخطاب وأقاربه. لقد كان عبارة عن ورقة رقيقة مربعة مكتوب عليها على الوجهين بخط صغير للغاية. كتبه شخص يُدعى روبرت تارتاكوفيسكي في معتقل درانسي. عرفت أنه من مواليد أوديسا يوم 24 نوفمبر 1902، وأنه كان مسئولًا عن أخبار الفن في جريدة «ليلوستراسيون» قبل الحرب. وسوف أعيد نسخ خطابه، اليوم الأربعاء الموافق 29 يناير 1997، بعد خمسين عامًا من كتابته.

«الجمعة، 19 يونيو 1942

السيدة تارتاكوفيسكي

50 شارع جودفروي- كافينياك. باريس، الدائرة الحادية عشرة.

لقد وقع الاختيار عليَّ أول أمس لترحيلي. وكنت قد تهيأت نفسيًّا لهذا الأمر منذ فترة طويلة. ساد الهلع في المعتقل، وكثير من المعتقلين يبكون من الخوف. الأمر الوحيد الذي يزعجني هو عدم إرسال الملابس التي طلبتها منذ فترة طويلة. لقد أرسلت قسيمة الطرد. هل سأحصل على هذه الأغراض في الوقت المناسب؟ أرجو من أمي ألا تقلق، أو أي أحد آخر، سوف أبذل ما في وسعي للعودة سالمًا معافى. إذا انقطعت أخباري فلا تقلقوا، توجهوا إلى الصليب الأحمر إذا لزم الأمر. اطلبوا من مخفر سانت لومبار (بلدية الدائرة الخامسة عشرة)، مترو فوجيرار، الأوراق المُتحفَّظ عليها يوم 3/5. اهتموا ببطاقة تطوعي للتجنيد، سجل رقم 10107، لا أعرف إن كانوا سيحتفظون بها في المعتقل أم سأستردها. أرجو إرسال نموذج من عمل ألبرتين إلى السيدة بيانوفيسي، 14 شارع ديجيري باريس، الدائرة الحادية عشرة. إنها تخص أحد زملاء السكن، سوف يدفع لكم هذا الشخص مبلغ ألف ومائتي فرنك. أخطروه بخطاب للتأكد من تواجده. سوف توجه الأحياء الثلاثة المنظمة للمعرض الدعوة لهذا النحات، وذلك بفضل مساعيَّ الشخصية

لدى السيد جومبل المعتقل في درانسي. إذا رغب المعرض في الاحتفاظ بمجمل الأعمال، أرجو حجز ثلاثة نماذج على سبيل أنها مبيعة مسبقًا، أو محجوزة للناشر. إذا اتَّسع قالب التحميل لأكثر من ذلك بصورة تفوق توقعاتكم، يمكنكم وفقًا لطلبي هذا، الاحتفاظ بنموذجين إضافيين. لا أريد إزعاجكم أكثر من اللازم. أتمنى أن يسافر مارت في العُطلة، فصمتي لا يعني مطلقًا أنني مستاء. إذا وصلكم خطابي هذا في الوقت المناسب، أرجو إرسال أقصى ما يمكن من الطرود الغذائية؛ لأن ذلك سوف يؤدي إلى عدم لفت الأنظار للوزن. سوف تُعاد الأغراض الزجاجية إليكم، كما أن السكاكين والشوك وشفرات الحلاقة وأقلام الحبر والإبر.. إلخ، تُعد من المحظورات. باختصار، سوف أحاول تدبر أمري. من المستحب إرسال بسكويت الجنود والفطير. لقد طلبت في بطاقة مراسلاتي المعتادة التوجه لسفارة السويد وتفقد أمر (إيرين) من أجل بيرسيماجي، أحد رفقاء المعتقل، وهو أكبر مني سنًّا وخائر القوى (اذهبوا إلى جاتينيو 13 شارع جراند شوميار). لا ضرر من صابونتين، وصابون حلاقة، وفرشاة حلاقة، وفرشاة أسنان، وفرشاة يد. لقد اختلطت كل الأشياء في ذهني، النافع منها والأشياء الأخرى التي أرغب في ذكرها لكم. سوف يغادر ما يقرب من ألف فرد المعتقل الذي يضم بعض الآريين المجبرين على وضع الشارة اليهودية. يُعد قدوم النقيب الألماني دونكر إلى المعتقل إحدى فرص الهرب الضائعة؛ حيث أمر كل أصدقائه بالتنزه بعيدًا في

الهواء الطلق بقدر المستطاع، لبعث الأمل في نفوسهم. لا أعرف إن كنا سنتوجه إلى معتقل كومباني قبل رحيلنا الأخير. سوف أغسل ملابسي هنا ولن أُرسلها للتنظيف؛ لأن الهزال الذي أصاب العدد الكبير هنا ألقى الذعر في نفسي، وأتساءل عن تأثير ذلك عندما نذهب إلى هناك. اذهبوا إلى السيدة سالزمان، إذا اقتضى الأمر، لمعرفة الأخبار وليس لطلب خدمة ما. ربما تواتيني الفرصة للقاء الشخص الذي أرادت جاكلين إطلاق سراحه. اطلبوا من أمي أن تأخذ حذرها؛ إذ يتم يوميًّا هنا اعتقال شباب في عمر السابعة عشرة والثامنة عشرة، وشيوخ في سن الثانية والسبعين. في إمكانكم حتى يوم الاثنين، إرسال عدة طرود على فترات. اتصلوا بالاتحاد العام لليهود الفرنسيين، شارع بيانفيزانس، الذي يتكفل بتوصيل الطرود المفقودة عند إرسالها على العناوين المعتادة. لم أشأ تحذيركم في خطاباتي السابقة رغم اندهاشي من عدم استلامي حقيبة سفري الصغيرة. أعتزم إرسال ساعتي إلى مارت، وربما قلمي الحبر. سوف أعهد بهذه المهمة للسيد «ب». لا تضعوا الأشياء القابلة للتلف في طرود المؤن، إذا كانت ستصلني في وقت لاحق. ضعوا داخلها الملابس الداخلية، وبعض الصور الخالية من المراسلات، وربما بعض الكتب عن الفن، وسوف أشعر بامتناني لكم على هذا الصنيع. سوف يمر عليَّ فصل الشتاء هنا دون شك، لكن لا تقلقوا من ذلك فأنا مهيأ لذلك. أعيدوا قراءة بطاقاتي، وسوف تلاحظون ما سبق وطلبته منذ يومي الأول ولا يخطر على بالي الآن، مثل

ثوب صوف يحتاج إلى الترقيع، كوفية، مرهم أستيرول جل 15، سكر مطحون في علبة معدنية عند أمي. إنني منزعج من حلق شعر رأس المُرحَّلين بالشفرة، ومن تمييزهم أكثر من وضعهم الشارة ذاتها. في حالة تفرُّقِنا، سوف يكون جيش الإنقاذ هو مصدر أخباري. أخطروا إيرين بذلك.

السبت 20 يونيو 1942. أحبابي الأعزاء، تسلمت أمس حقيبة، وأشكركم على كل ما قدمتموه. أخشى أن يكون ترحيلي في عُجالة، ولكنني لست متأكدًا من ذلك. من المفترض حلق شعر رأسي اليوم بالشفرة. بدءًا من هذا المساء، سوف يُسجن المُرحَّلون جميعهم في مبنى خاص شديد المُراقَبة، مع ملازمة الحراس لهم، حتى عند ذهابهم إلى دورة المياه. يخيم على المعتقل بأكمله جو من الكآبة. لا أعتقد أننا سنمر على كومبايين. أعرف أننا سوف نحصل على مؤن تكفي لسفر ثلاثة أيام. أخشى أن أرحل قبل حصولي على طرد آخر، لكن لا تقلقوا فالطرد الأخير كان عامرًا، ولقد ادخرت منذ وصولي إلى هنا الشوكولاتة، وعلب الطعام المحفوظ، وعبوات المقانق الكبيرة. اطمئنوا، لن أنساكم فأنتم في خاطري. أردت أن أرد أسطوانات بيتروخا لمارت يوم 28/7 وهي تسجيلات كاملة على أربع أسطوانات. لقد قابلت أمس السيد «ب» لأشكره على اهتمامه، وهو يعلم جيدًا أنني دافعت عن أعمال النحات أمام بعض الشخصيات هنا. أنا سعيد لحصولي على بعض الصور الحديثة التي لم أُطلِع السيد «ب» عليها، واعتذرت له عن عدم إهدائه صورة للعمل ولكنني

أخبرته أن في إمكانه طلب تلك الصور. إذا رجعت سريعًا، فسوف يكون لدي متسع من الوقت لحضور فعاليات المعرض؛ ولذلك أعتذر عن مقاطعتي لكم. إنني أهوى منحوتات لوروي، فهل في مقدوري طلب تخفيض يتناسب مع إمكاناتي، لأن تلك الفكرة تلح عليَّ قبل ساعات قليلة من رحيلي. أرجو منكم أن تشملوا أمي برعايتكم دون أن يؤثر ذلك على أموركم الشخصية. اطلبوا من إيرين جارتها أن تلبي لي هذه الأمنية. حاولوا أن تتصلوا بالطبيب أندريه عبادي (إن كان لا يزال في باريس) وأخبروه أنني قابلت في الأول من مايو الشخص الذي يعرف عنوانه، وأنني اعتُقِلت في الثالث من الشهر ذاته (هل هي من قبيل المصادفة؟). ربما تندهشون من ذلك اللفظ الذي يثير البلبلة، لكن البيئة المحيطة بنا قاسية، فالساعة الآن السادسة صباحًا، ويجب أن أرد إليكم بعد قليل الأغراض التي أخشى ألا أتمكن من جلبها معي؛ إذ يتوقف هنا رد إحدى الحقائب في اللحظة الأخيرة على عدم اتساع المكان، أو على مزاج رجال التفتيش (سواء كانوا من دوريات شرطة استجواب اليهود أو مرشدين لهم). غير أن ذلك قد يعود بالنفع عليّ، لأنني سوف أستغني عن الأشياء التي لا تلزمني. لا تنزعجوا إذا انقطعت عنكم أخباري، لا تتعجلوا الأمور، اصبروا وكونوا واثقين من أمري. أخبروا أمي أنني أفضل المغادرة مع هذه الرحلة؛ فقد شاهدت (كما سبق وأخبرتكم) ترحيل الآخرين إلى أماكن أخرى. إن أكثر ما يؤسفني هو إجباري على ترك قلمي الحبر، وحرماني من حق

الحصول على أوراق (تمر بخاطري فكرة ساخرة، ألا وهي حظر اقتنائنا سكاكين وعدم امتلاكي لمفتاح فتح علب السردين). لا أتعجرف، فمزاجي لا يسمح بذلك، ولا البيئة المحيطة. لقد وقع الاختيار على عدد كبير من المرضى والممرضين للرحيل معنا. أتذكر السيد ر. د وأتمنى أن يكون في مكان آمن. لقد وجدت أن الأشياء التي أحتاجها متوفرة عند جاك دومال. أعتقد أنه من غير المجدي في الوقت الحاضر أن أطلب منكم استبعاد بعض الكتب من الطرد خاصتي، وأترك لكم حرية الاختيار. المهم هو أن نحظى بوقت طيب في الطريق! احرصوا على حصول أمي على الإعانات، اطلبوا مساعدة الاتحاد العام لليهود الفرنسيين. أعتقد أنكم أصلحتم ذات البين الآن مع جاكلين، فهي تتصرف تصرفات مثيرة للدهشة لكنها لطيفة في واقع الأمر. ينبلج النهار والجو سوف يكون صحوًا. لا أعرف إن كنتم استلمتم بطاقتي المعتادة وإن كنت سأتلقى الرد قبل رحيلي. إنني أفكر في أمي وفيكم وفي كل زملائي الذين ساعدوني بكل مودة في الحفاظ على حريتي. أتوجه بالشكر من كل قلبي لكل من أتاح لي فرصة البقاء على قيد الحياة حتى «فصل الشتاء». لن أستكمل كتابة هذا الخطاب، لأنني سوف أبدأ في إعداد حقيبتي. إلى اللقاء قريبًا. أترك قلمي الحبر وساعتي لمارت مهما قالت أمي، ولن أستمر في تكرار تلك الملحوظة. أرسل قبلاتي إلى أمي الغالية وإليكم أحبائي. أقبِّلكم جميعًا وأنا في غاية التأثر. تحلوا بالشجاعة وإلى اللقاء قريبًا، فالساعة الآن السابعة».

مر على ذهابي لأحياء قلب مريم المقدس وتوريل في الجهة الشرقية للبحث عن آثار دورا بروديه، أحدان من آحاد شهر أبريل عام 1996. أعتقد أنه كان يجب عليَّ إنجاز ذلك الأمر في يوم من أيام الأحد المقفرة التي تقل فيها جموع المارة.

لقد تبدل الحال في حي قلب مريم المقدس بعد تشييد بلوكات المباني الحديثة في زاوية شارعي بيكبوس ومحطة دي رويللي. تحمل هذه المباني أرقامًا فردية في شارع دي رويللي، مكان سور المدرسة الداخلية الذي تكتنفه الأشجار، بينما ظل الحال على ما هو عليه في الجهة المقابلة، وعلى الرصيف ذاته وعلى مسافة أبعد قليلًا، في المباني التي تحمل أرقامًا زوجية.

يصعُب علينا تصور أن رجال الشرطة جاءوا، وقت احتجاز دورا في توريل، لاعتقال تسعة من الأطفال والمراهقين ذات صباح من شهر يوليو عام 1942، من المبنى رقم 48 مكرر، بنوافذه التي كانت تطل على حديقة قلب مريم المقدس. يتكون هذا المبنى من خمسة طوابق من اللبنات الفاتحة. يحتوي كل طابق على نافذتين كبيرتين وعلى اثنتين أصغر قليلًا. إلى جانب المبنى السابق يقع المبنى رقم 40 بلونه الرمادي ومكانه الغائر. أمام هذا المبنى يوجد جدار صغير من الطوب وقضبان حديدية. في الجهة المقابلة وعلى الرصيف الذي كان محاطًا بسور المدرسة الداخلية، توجد بعض الأبنية الصغيرة التي ظلت على حالها. في المبنى رقم 54، وقبل بلوغ شارع

بيكبوس، كان هناك مقهى تديره آنسة تدعى لينزي.

أصبحت على يقين بصورة مفاجئة من أن دورا مرت بشارع محطة دي رويللي ليلة هروبها وابتعادها عن المدرسة الداخلية. وأصبحت أراها تسير بمحاذاة سور الداخلية، ربما لأن كلمة «محطة» تعطي إيحاءً بالهروب.

مشيت في الحي، وشعرت لوهلة بالكآبة التي كانت تخيم على أيام الأحد الأخرى، موعد العودة إلى المدرسة الداخلية. كنت متأكدًا من نزولها من المترو في محطة ناسيون، ومن تلكؤها في اجتياز البوابة وعبور الفناء، وتسكعها قليلًا في الحي. لقد هبط الليل وساد الهدوء في حي سانت موندیه الذي تكتنفه الأشجار. لا أتذكر وجود رصيف أمام المخرج القديم لمحطة مترو بيكبوس. هل كانت تخرج أحيانًا من هذا المخرج؟ على يمين المحطة تقع جادة بيكبوس الأكثر برودة وكآبة من شارع سانت موندیه الخالي من الأشجار، كما يبدو لي، والذي تخيم عليه الوحشة في طريق العودة مساء الأحد.

تنحدر جادة مورتييه نحو الجنوب، وكي أصل إليها يوم الأحد 28 إبريل 1996، تتبعت المسار الآتي: شارع آرشيف، شارع بروتاني، شارع فيديكالفار، ثم الذهاب إلى مطلع شارع أوبركامف، حيث كان يقيم حنا.

على اليمين، سرت في الممر الخالي من الأشجار بمحاذاة شارع بيرينيه، ثم شارع مينيلمونتون. كانت بلوكات الأبنية رقم

140 تبدو مثل البادية المشمسة. في الجزء الأخير من شارع سانت فارجو، كان لديَّ انطباع بأنني أعبر ضيعة مهجورة.

تكتنف أشجار الصنوبر جانبي جادة مورتييه، ولا تزال ثكنة توريل قائمة كما هي في نهاية الجادة وقبل بورت دي ليلاس مباشرة.

خلت الجادة من المارة ذلك الأحد، وسادها الهدوء العميق لدرجة أنني كنت أسمع حفيف أشجار الصنوبر. كانت ثكنة توريل القديمة محاطة بسور عالٍ يخفي مبانيها. سرت بمحاذاة السور وقرأت على اللافتة المعلقة عليه:

منطقة عسكرية

ممنوع تصوير الأفلام

أو التقاط الصور

حدثت نفسي بأنه لا أحد يتذكر أي شيء. تمتد وراء هذا السور منطقة خالية ومهملة. لم تُهدم الأبنية القديمة لثكنة توريل مثل مباني المدرسة الداخلية بشارع بيكبوس، غير أن الأمر سيان.

بالرغم من هذا، فإننا نشعر بأن وراء هذا الفقدان العميق للذاكرة، يتردد من حين لآخر صدى بعيد وكامن، لكننا غير قادرين على تحديد ماهيته. كما لو أننا نقف على طرف حقل مغناطيسي يفتقد البندول الذي يلتقط الموجات. في خضم هذه

الريبة والنوايا السيئة، عُلقت اللافتة المكتوب عليها: «منطقة عسكرية ممنوع تصوير الأفلام أو التقاط الصور».

أتذكر وأنا في العشرين من عمري في أحد أحياء باريس، أن شعورًا انتابني وكان مماثلًا للوحشة التي أحسست بها وأنا أقف أمام سور توريل، دون أن أعرف سببًا لذلك.

كانت لديَّ صديقة تتنقل للإقامة بين عدة شقق وبيوت ريفية. وفي كل مرة كنت انتهز الفرصة لأسلب من مكتباتها كتب الفن والطبعات المرقمة كي أعيد بيعها. ذات يوم، في شقة بشارع روجار عندما كنا بمفردنا، سرقت صندوق أسطوانات موسيقية قديمة وبعض البدل الأنيقة والقمصان وحوالي عشرة أزواج من الأحذية الفاخرة من خزائن الملابس بعد تفتيشها. ثم بحثت في دليل التليفونات عن تاجر للأشياء المستعملة لبيعه هذه الأغراض، وعثرت على مشترٍ في شارع جاردان سانت بول.

يبدأ هذا الشارع من منطقة السين بمحطة سيلسيتين ويلتقي بشارع شارلوماني بالقرب من المدرسة الثانوية التي أديت بها امتحان إتمام الدراسة الثانوية السنة السابقة. أسفل أحد آخر مبنيين من الجهة التي تحمل أرقامًا زوجية، وقبل شارع شارلوماني بقليل، كان هناك نصف ساتر حديدي يعلوه الصدأ. دخلت إلى مخزن تتكدس فيه الأثاث والملابس وحديد الخُردة وقطع غيار السيارات. استقبلني رجل في الأربعين من

عمره، وأخبرني بلطف أن أمامي عدة أيام لإحضار «البضاعة» لمعاينتها على الطبيعة.

بعد مغادرتي له تابعت سيري في شارع جاردان سانت بول في اتجاه السين الذي تعرَّض، قبل فترة قصيرة من عروجي عليه، لإزالة مبانيه التي تحمل أرقامًا زوجية وبعض المباني الأخرى التي تقع خلفها، وظلت هذه المساحة أرضًا فضاء تحيطها أنقاض نصف عقارات، تظهر على جدارن حجراتها القديمة القائمة دون أسقف، بعض الأوراق الملونة والآثار المتبقية من أنابيب المواقد. هذا المنظر يجعل الحي يبدو وكأنه تعرض للقصف، كما يتفاقم الإحساس بالوحشة منه بسبب منفذ الشارع المؤدي إلى السين.

اتصلت بتاجر الأغراض المستعملة يوم الأحد التالي للقائي به، واتفقت معه على مقابلتي بجادة كيليرمان بالقرب من بورت جينتيي عند والد أحد أصدقائي لتسليمه «البضاعة». قام بوضع الحمولة المكونة من صندوق الأسطوانات الموسيقية والبدل والقمصان والأحذية في سيارته، ودفع لي مقابل الأمتعة كلها سبعمائة فرنك من عملة ذلك الزمان.

عرض عليَّ التاجر الذهاب لتناول كأس، وتوقفنا في أحد المقهيين المواجهين لملعب شارليتي.

سألني عن مهنتي، ولم أستطع الإجابة على سؤاله. اكتفيت بقولي إنني لم أستكمل دراستي، وبدأت بدوري أوجه إليه

بعض الأسئلة. فأخبرني أن ابن عمه وشريكه يدير مخزن شارع جاردان سانت بول، وهو مسئول عن مكان آخر من ناحية سوق البالات ببورت كليونكور، حيث مسقط رأسه وأن أصله يعود إلى عائلة يهودية بولندية.

بدأت التحدث معه عن الحرب والاحتلال. كان عمره آنذاك ثمانية عشر عامًا. ويتذكر أنه ذات أحد، قامت الشرطة بمداهمة سوق البالات بسانت كوين لاعتقال اليهود وأنه فر من قبضتهم بأعجوبة، وكان مندهشًا من وجود امرأة ضمن فريق المفتشين.

تحدثت معه عن الأرض الفضاء الكائنة مكان بلوكات مباني جادة نايي، التي لاحظتها عندما كانت أمي تصطحبني كل سبت إلى سوق البالات. كان مقيمًا آنذاك مع عائلته في هذه الناحية بشارع إليزابيث رولاند، واستغرب من تدويني اسم الشارع. لقد كنا نسمي ذلك الحي بعد الحرب السهل المنبسط. أُزيلت المباني كلها وتحولت في الوقت الحاضر إلى ملعب رياضي.

أثناء حديثي معه تذكرت والدي الذي لم ألتقه منذ فترة طويلة. عندما بلغ التاجر سن التاسعة عشرة، المماثل لعمري، وقبل الاستغراق في أحلام الثروة الكبيرة، كان يكسب عيشه من التجارة البسيطة على بوابات باريس. كان يتسلل حاملًا صفائح البنزين لبيعها لأصحاب الجراجات، وكان يبيع المشروبات، وغيرها من البضائع، ويتهرب من دفع رسم العبور.

قبل افتراقنا، قال لي بلهجة ودية إن في استطاعتي ملاقاته

في شارع جاردان سانت بول إن كنت أمتلك بعض الأغراض الأخرى وأرغب في عرضها عليه. أعطاني مائة فرنك إضافية بعد أن لمس دون شك أنني شاب طيب وسليم النية.

لقد نسيت شكله، وجُلُّ ما أتذكره هو اسمه. يوجد احتمال كبير أنه كان يعرف دورا برورديه من ناحية بورت كليونكور والسهل. فقد كانا يقيمان في الحي عينه وسنُّهما متقارب. ربما يعرف الكثير عن هروب دورا برورديه.. فهناك دائما المصادفات واللقاءات والمقابلات المتزامنة التي نغفل توقيتاتها.. خطر على بالي ذلك الأمر، في خريفنا هذا عندما عاودت السير في شارع جاردان سانت بول، ورأيت اختفاء المخزن وبابه الحديد الصدئ، والمباني المجاورة له التي أُعيد ترميمها. انتابني مرة أخرى الإحساس بالوحشة وأدركت لماذا أشعر به. لقد أزيلت معظم مباني الحي بعد الحرب بطريقة منهجية وفقًا لقرار إداري أطلق على هذه المنطقة الواجب إزالتها مجموعة المنازل السادسة عشرة. عثرت على بعض الصور لشارع جاردان سانت بول عندما كانت المباني ذات الأرقام الزوجية لا تزال قائمة، وعلى صورة أخرى على أنقاض أنصاف مبانٍ بجوار كنيسة سانت جيرفاس، وبالقرب من فندق سانس. عثرت على صورة أخرى لأرض فضاء على ضفاف السين يعبرها الناس وتقع بين رصيفين عديمي الجدوى لأنهما كل ما تبقي من شارع نونان – ديار. تراصت المباني التي شُيدت فوق هذه الأرض بصورة أدت إلى تعديل المسار القديم للشوارع.

كانت واجهة تلك المباني مستقيمة الشكل، ونوافذها مربعة، وخرسانتها مطموسة اللون، ومصابيح شوارعها ينبعث منها ضوء خافت، لكن يمكننا أن نرى من حين لآخر ضوءًا أبيض وميدانًا وأشجارًا ومستلزمات ديكور ورُقع أرض صناعية. لم يقنعوا بتعليق لافتة مماثلة لتلك المعلقة على ثكنة توريل «منطقة عسكرية. ممنوع تصوير الأفلام أو التقاط الصور»، إنما أبادوا المنطقة بأسرها لإنشاء ضيعة منعزلة لا نستطيع التشكيك في عدم تأثرنا بها.

صارت قصاصات الورق الملونة، التي رأيتها منذ ثلاثين عامًا في شارع جاردان سانت بول، مجرد أطلال للغرف التي كنا نقطنها فيما مضى، تلك الغرف التي دخلها رجال الشرطة ذات يوم من شهر يوليو عام 1942 لاعتقال البنات والأولاد من سن دورا. لقد تكررت أسماء الشوارع عينها في قائمة أسمائهم، غير أن أرقام المباني وأسماء الشوارع أصبحت لا تنُم عن شيء البتة.

في سن السابعة عشرة، كانت توريل بالنسبة لي مجرد اسم اكتشفته في نهاية كتاب جان جينيه «معجزة الوردة»، الذي أشار فيه إلى الأماكن التي أَلَّف فيها الكتاب، ألا وهي «سجن لاسانتيه، توريل عام 1943». لقد كان هو أيضًا أحد السجناء بتهمة مخالفة القانون العام بعد ترحيل دورا برروديه بوقت قصير، أو ربما في الفترة ذاتها. لم يتأثر كتاب «معجزة الوردة» بذكريات إصلاحية ميتراي التأديبية فحسب – أحد بيوت إعادة

تأهيل الأطفال التي أرادوا إلحاق دورا بها– بل بسجن لاسانتيه في توريل، كما يتضح لي الآن.

لقد حفظت عن ظهر قلب بعض جُمل ذلك الكتاب، وأتذكر إحداها التي تقول: «لقد علَّمني هذا الطفل أن المغزى الحقيقي للغة العامية الباريسية يكمن في المودة الكئيبة». تُذكِّرني هذه الجملة بدورا برورديه التي أشعر أنني أعرفها. لقد فرضوا ارتداء النجوم الصفراء على الأطفال الذين يسمَّون بأسماء بولندية وروسية ورومانية، بالرغم من تطابق هيئاتهم مع واجهات المباني والأرصفة ومختلف الألوان الباهتة واللانهائية التي لا يوجد مثيلها إلا في باريس. لقد كانوا يتحدثون جميعهم بلهجة أهل باريس ويستخدمون كلمات من اللغة العامية، التي كان جان جينيه يشعر أنها تعبر عن المودة الكئيبة.

كان مسموحًا للسجناء في توريل، أثناء فترة احتجاز دورا، بالحصول على طرود واستقبال الزائرين يومي الخميس والأحد، وحضور الصلاة يوم الثلاثاء. كان الحراس يبدؤون نداء الأسماء الساعة الثامنة صباحًا، فيقف السجناء في حالة استعداد أمام أسرتهم. اقتصر طعام الغداء في المطعم على الملفوف، والتنزه على فناء الثكنة. تناول العشاء في تمام الساعة السادسة مساءً، ويليه نداء الأسماء مرة أخرى. الاستحمام كل خمسة عشر يومًا ويذهب كل مسجونين في حراسة الجنود. ثم ينطلق النفير ويقف السجناء في وضع الانتظار. من أجل الحصول على إذن

زيارة، كان لا بد من تقديم خطاب مكتوب إلى مدير السجن دون انتظار موافقته على منح التصريح.

الزيارات كانت تبدأ بعد الظهر في المطعم، بعد تفتيش الحراس لأكياس القادمين، وفتح أمتعتهم. في أحيان كثيرة، كانت تُلغى الزيارات دون إبداء الأسباب، ويُخطر السجناء قبل ذلك بساعة واحدة فقط.

التقت دورا في توريل ببعض النسوة اللاتي أطلق عليهن الألمان «صديقات اليهود»، ومن بينهن عشرات الفرنسيات «الآريات» اللاتي تحلين بالشجاعة منذ اليوم الأول الذي فُرِض فيه على اليهود وضع النجمة الصفراء في شهر يونيو، وذلك عندما وضعن النجمة بصورة غير مألوفة ومستفزة لسلطات الاحتلال، كنوع من التضامن مع اليهود على الطريقة الفرنسية، فقامت إحداهن بتعليق النجمة في رقبة كلبها، وأخرى بتطريز كلمة «دغدغة» على النجمة، وأخرى كلمة «صانعة الغزل»، ولجأت إحداهن لتعليق ثماني نجمات على حزام الخصر ووضعت على كل واحدةٍ منها علامة النصر. ألقي القبض عليهن جميعًا في الشارع وأُرسلن إلى أقرب مخفر، ثم حجز قسم الشرطة، ثم توريل، ثم درانسي يوم 13 أغسطس. هؤلاء النسوة «صديقات اليهود» كن ناسخات على الآلة الكاتبة، وبائعات ورق وجرائد، وعاملات تنظيف، وموظفات في مكاتب البريد، وطالبات.

في شهر أغسطس، ازدادت أكثر فأكثر أعداد المقبوض

عليهن، وبدأ بعدها إرسال النساء إلى توريل مباشرة دون المرور حتى على المخفر. وأصبحت المهاجع التي كانت تتسع لعشرين سيدة، تؤوي ضعف هذا العدد. أدت هذه الفوضى إلى ارتفاع حرارة المكان بصورة خانقة وزيادة الضجر من المكان، إلا أنهن كن يعرفن أن توريل لم تكن سوى محطة يتم بعدها نقل السجينة إلى جهة مجهولة.

يومي 19 و27 يوليو غادرت بالفعل ما يقرب من مائة يهودية إلى معتقل درانسي، وكان من بينهن البولندية راكا إيزرالويكس، ذات الثمانية عشر عامًا، والقادمة إلى توريل يوم وصول دورا، وربما ركبتا معًا سيارة الترحيلات، وكانت بالتأكيد تقيم بأحد العنابر المجاورة.

مساء يوم 12 أغسطس، تردد في توريل أن «صديقات اليهود» سوف يغادرن جميعًا إلى معتقل درانسي في اليوم التالي.

الساعة العاشرة صباح يوم 13، بدأ النداء الذي لا ينتهي، في فناء الثكنة تحت أشجار الكستناء حيث تناولت السجينات حصتهن من طعام الغداء التي كانت لا تسمن ولا تغني من جوع.

وصلت الحافلات التي كانت تتسع - على ما يبدو- لعدد السجينات، وجلست كل واحدة منهن على مقعد بمفردها. كان يوم الخميس هو اليوم المخصص لزيارة دورا مثل بقية السجينات.

انطلقت القافلة محاطة برجال شرطة الدراجات البخارية المرتدين خوذاتهم، وسلكت الطريق المؤدي في الوقت الحاضر

إلى مطار رويسي. مر على تلك الواقعة أكثر من خمسين عامًا، أنشئ خلالها الطريق السريع، وأزيلت بعض المنازل، وتغير مظهر الضاحية الشمالية الشرقية ليماثل بقدر الإمكان الضيعة السادسة عشرة القديمة غير ذات القيمة وغير المؤثرة. غير أن اللافتات الإرشادية في طريق المطار لا زالت تحمل الأسماء القديمة مثل درانسي أو رومانفيل. على جانب الطريق السريع، من ناحية بورت بانيوليه، توجد بقايا مخزن من الخشب يرجع لذلك العهد، أغفلوا إزالته ويحمل اسم دورمور بصورة واضحة.

وسط هذا الازدحام الشديد، التقت دورا مرة أخرى بوالدها المعتقل منذ شهر مارس. في شهر أغسطس كان المعتقل يمتلئ كل يوم بفوج من الرجال والنساء يزداد عددًا اليوم تلو الآخر، كما كان الحال في توريل وحجز قسم الشرطة. الآلاف منهم كانوا يصلون في قطار البضائع من المنطقة الحرة، والمئات والمئات من النساء، اللاتي انتزع منهن أطفالهن، كن وافدات من معتقلات بيثيفييه وبون-لا- رولاند. كما وصل أربعة آلاف طفل بدورهم يوم 15 أغسطس والأيام التي تليه بعد ترحيل أمهاتهم. أسماء الكثيرين منهم المكتوبة في عُجالة على ملابسهم عند ترحيلهم من بيثيفييه وبون -لا- رولاند، لم تكن واضحة، فأصبحوا: طفل مجهول الهوية رقم 122، وطفل مجهول الهوية رقم 146، وطفلة مجهولة الهوية عمرها ثلاث سنوات اسمها فيرونيك. يومي 2 و5 سبتمبر قررت السلطات ترحيل اليهود حاملي الجنسية الفرنسية من درانسي إلى

معتقل بيثيفييه، نظرًا لاكتظاظه وتوقع وصول قوافل أخرى من المنطقة الحرة. الفتيات الأربع كلودين وينربرت وزيلي ستروليتز ومارت ناشمانويس وإيفون بيتون، اللاتي وصلن مع دورا في اليوم عينه والبالغات ست عشرة أو سبع عشرة سنة، كنَّ ضمن هذه القافلة التي ضمت ما يقرب من ألف وخمسمائة يهودي فرنسي، توهموا دون شك أن جنسيتهم سوف توفر لهم الحماية اللازمة. لقد كان في مقدور دورا مغادرة المكان معهم لأنها فرنسية. ومن السهل علينا استنتاج سبب عدم مغادرتها؛ ألا وهو تفضيل البقاء مع والدها.

غادر الاثنان، الأب والابنة، درانسي يوم 18 سبتمبر في القافلة المتوجهة إلى أوشفيتز ضمن ألف رجل وامرأة.

اعتُقِلَت سيسيل برورديه والدة دورا في 16 يوليو 1942 يوم المداهمة الكبرى، واحتُجِزت في درانسي. التقت زوجها لعدة أيام في الفترة التي كانت ابنتهما خلالها معتقلة في توريل. وأطلق سراحها بالتأكيد من درانسي يوم 23 يوليو، لأنها من مواليد بودابست ولم تكن السلطات آنذاك قد أصدرت أوامرها بترحيل اليهود من أصل مجري.

هل تمكنت من زيارة دورا في توريل يوم خميس أو أحد من صيف 1942؟ لقد اعتُقلت من جديد يوم 9 يناير 1943، وسُجِنت في درانسي ثم غادرت مع قافلة 11 فبراير 1943 المتجهة إلى أوشفيتز، بعد خمسة أشهر من مغادرة زوجها وابنتها.

في اليوم التالي لترحيل دورا الموافق 19 سبتمبر، فرضت سلطات الاحتلال حظر تجول ردًّا على محاولة الاعتداء على سينما ريكس. لم يكن أحد يتجرأ على الخروج من الساعة الثالثة عصرًا حتى صباح اليوم التالي، وكانت المدينة خاوية كما لو أنها كانت تشير إلى اختفاء دورا.

لا تزال باريس في نظري المدينة الخاوية والهادئة عندما أمشي الآن في شوارعها الخاوية أو ساعة الذروة في المساء عندما يهرول الناس نحو مخارج المترو، ولا يختلف حالها عن اليوم الذي كنت أحاول فيه العثور على أثر لدورا. لا أستطيع منع نفسي من التفكير فيها والإحساس بصدى وجودها في بعض الأحياء. لقد انتابني ذلك الشعور ذات مساء بالقرب من محطة الشمال.

لا زلت أجهل كيف كانت تقضي أيامها، وأماكن اختبائها، ومن كان في صحبتها أثناء هروبها الأول في فصل الشتاء وبعض أسابيع من فصل الربيع. لقد كان كل ذلك سرها. السر البسيط والدفين الذي لم يتمكن كائنًا ما كان أن يسلبه منها، الجلادون والأوامر وسلطات الاحتلال والسجن والثكنات والمعتقلات والتاريخ والزمن، أي كل الأمور الكفيلة بتدنيس الشخص وتدميره.

يُقال إن الأماكن تحتفظ بأثر بسيط عن الأشخاص المقيمين بها، أثر دفين أو واضح. بالنسبة لإرنست وسيسيل برودیه ودورا، سوف أقول إنه دفين. لقد كان يتولَّد لديَّ انطباع بالاختفاء والضياع في كل مرة كنت أتردد فيها على أحد الأماكن التي أقاموا بها.

باتريك موديانو

روائي فرنسي شهير فاز بجائزة نوبل في الأدب عام 2014. كما حاز قبلها على أرفع الجوائز الأدبية الفرنسية ومنها الجائزة الكبرى للأكاديمية الفرنسية للرواية عام 1972، وجائزة الجونكور عام 1978.

موديانو من مواليد عام 1945 وقد ألف أكثر من عشرين رواية، أصدر روايته الأولى ميدان النجمة وهو في الثالثة والعشرين. ويعتبر "دورا برودیه" أشهر كتبه وأكثرها مبيعا.

نوبل
للآداب
2014

Cover design by: Alaa Elnewehy

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

ISBN 978-977-821-019-4
9 789778 210194